f

بلاغة المتشابه اللفظي
عند الطاهر بن عاشور
في تفسيره التحرير والتنوير

إعداد
د / خالد أحمد محمد
كلية العلوم والدراسات الإنسانية بالسليل
جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز– السعودية
(معار من كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا –جامعة الأزهر)
K.hassan@psau.edu.sa

ملخص البحث (عربي)

هذا بحث بعنوان : (بلاغة المتشابه اللفظي عند الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير).

وقد تناول المبحث الأول الأسس التي اعتمد عليها الطاهر في توجيه المتشابه كمراعاة السياق ، ومراعاة المقام (الحال) ، ومراعاة التلاؤم بين أجزاء النظم (التأليف) ، والتفنن ، وترتيب النزول ، ومراعاة النظير.

وأما المبحث الثاني فهو بعنوان (الأسرار البلاغية في المتشابه من الحروف) وقد تناول إبراز جهد الطاهر في أمرين هما : إبدال حرف بغيره ، وحذف الحرف وذكره.

وأما المبحث الثالث فهو بعنوان : (الأسرار البلاغية في المتشابه من الألفاظ) ، وقد دارت ملاحظاته حول إبدال كلمة بأخرى ، وتغيير بنية الكلمة ، والتقديم والتأخير.

وأما المبحث الرابع فقد تناولت فيه الأسرار البلاغية في المتشابه من الجمل عند الطاهر.

Abstract

This research is entitled: (Eloquence of Verbal Similarity at Tahar Ben Ashour in the interpretation of liberation and enlightenment).

The first topic deals with the bases on which Taher relied on similar guidance such as contextualization, taking into account the case, taking into account the compatibility between the parts of authorship, the artistic matter, the order of descent of the Quran, and the reconsidering of the counterpart.

The second topic is entitled (Rhetorical Secrets in Similar Letters) has dealt with highlighting the Taher effort in two things are: the replacement of a letter to others, and delete the letter and mention

The third topic is entitled (Rhetorical Secrets in Similar Words), and his remarks discussed the replacement of a word to another, and change the structure of a word, in addition to presentation and delay.

The fourth section deals with the Rhetorical Secrets in the Similar Sentences of Attaher.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله العظيم الجواد المنان ، نحمدك ربنا حتى ترضى ، ونحمدك إذا رضيت ، ونحمدك بعد الرضا ، فأنت وحدك جدير بالحمد كله، أما بعد..
فقد كان من توفيق الله تعالى أن يكون هذا البحث متصلًا بأعظم غاية ، ألا وهي خدمة كتاب الله تعالى بالتأمل في بعض أسرار محاسنه في باب من أدق ألوان البلاغة وهو علم المتشابه اللفظي عند علامة العصر سماحة الشيخ الجليل محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره القيم " التحرير والتنوير".

ومن الأسباب التي دعت إلى اختيار هذا البحث ما يلي :

- يعد منهج أسلافنا في الكشف عن بلاغة المتشابه اللفظي هو أقوى الأدلة التي تثبت إعجاز القرآن ، وتكشف عن سمو نظمه وفصاحته التي ترتقي على سائر نظم الفصحاء، كما تسفر توجيهاتهم للمتشابه عن جوهر البلاغة الساطع ومعدن الإعجاز الثمين .
- بيان القيمة العلمية لتوجيهات الآيات المتشابهة في تفسير " التحرير والتنوير"، وتوضيح ما اشترك فيه الطاهر مع غيره من علماء المتشابه والمفسرين ، وما أضافه في هذا المجال ، والكشف عن مدى توفيقه في توجيهاته لآيات المتشابه اللفظي ، وما تمتع به من نظر ثاقب في تحليلاته .
- الكشف عن الأسس البلاغية العامة التي كان يبني عليها الطاهر بن عاشور توجيهاته وتحريرها .

ولا شك أن الوقوف على الضوابط العامة التي كان يعتمد عليها أسلافنا في تحليلهم للنصوص وتجلية معالمها وضبط قواعدها وتعهدها بالتنمية والنضوج لهو المنهج القويم الذي يساعد في دراسة النصوص الأدبية

وتذوقها.

وقد قامت الدراسة على المنهج الاستقرائي الذي يستخرج النصوص المتعلقة بالمتشابه اللفظي في تفسير التحرير والتنوير، ثم المنهج التحليلي الذي يرتكز على تحليل نصوص الطاهر ، والموازنة بين آراء الطاهر وبين آراء السابقين من علماء المتشابه والمفسرين .

وقد أقمت الدراسة على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة .

ففي المقدمة تناولت أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطته.

وأما مباحث الدراسة فكانت على النحو التالي :

المبحث الأول : (أسس توجيه المتشابه اللفظي عند الطاهر بن عاشور).

المبحث الثاني : (الأسرار البلاغية في المتشابه من الحروف).

المبحث الثالث : (الأسرار البلاغية في المتشابه من الألفاظ).

المبحث الرابع : (الأسرار البلاغية في المتشابه من الجمل).

وفي الخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم وضعت ثبتًا للمصادر والمراجع.

وأخيرًا هذا جهد المقل ، فما كان من الصواب فمن الله وحده ، وما كان من الخطأ فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله وأتوب إليه من كل زلل .

المبحث الأول

أسس توجيه المتشابه اللفظي عند الطاهر بن عاشور

تبنى كافة العلوم على مراعاة ضوابط عامة وأصولًا شاملة، ولا تكتمل أركان العلوم إلا بالوقوف عليها، ولذا يعمد العلماء من أجل استنباطها إلى محاولات جادة وكد واستقصاء النظر واستقراء دقيق لمكونات وجزيئات العلم الذي يدرسونه ، يقول د / محمد أبو موسى : " ومن المعلوم أن عبد القاهر وغيره من علمائنا كانوا يتفقدون كلام العرب كله ، ويستقصونه ؛ ليستخرجوا طرائقهم وسننهم في كلامهم ، وأن علوم العربية كانت بهذا التقصي ومنه ، وهذا شائع ومعروف "[1].

ومن خلال معايشة توجيهات الطاهر بن عاشور لما توقف عنده من آيات المتشابه القرآني ، استخلصت الدراسة ما ارتضاه واعتمد عليه في التوجيه ، وإبرازًا لدوره في هذا العلم ومدى إسهامه فيه لا تتوقف الدراسة عند ما ذكره الطاهر من ضابط لتوجيه المتشابه ، بل تقارن بينه وبين غيره من علماء المتشابه والمفسرين في الآيات التي اختارتها الدراسة نماذج تطبيقية لأسس توجيه المتشابه عنده .

وهذه هي أسس توجيهات المتشابه اللفظي عند الطاهر بن عاشور:

أولاً : مراعاة السياق

السياق هو الذي يحدد مسار النظم ونهج التراكيب ، وتآلف السياق ضرورة لازمة في كل خطاب بليغ ، وإلا لكان الخطاب موصوفًا بالانقطاع ، وكان أشتاتًا متفرقة ، لا ترقى إلى تحقيق الهدف المبتغى من السياق على الصورة المثلى ، فضلاً عن ذلك فإن " الوعي بالسياق وأهميته فطرة لسانية فهمًا وإفهامًا ، وهو غير خاص بلسان قوم دون قوم ، وإن يكن اللسان

[1] مراجعات في أصول الدرس البلاغي – أ. د /محمد محمد أبوموسى– مكتبة وهبه– الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨ م – صـ :٢٦٦.

الأرقى والأوسع فعلًا وحضورًا أهمية السياق فيه أعظم "[1]

وقد أولى الطاهر السياق عناية فائقة في بيان أسرار الفروق في التراكيب المتشابهة ، وقد دارت توجيهاته المرتكزة على السياق حول الأغراض التالية:

- **مراعاة موضوع السياق**

وذلك كتوجيهه عدم ذكر المجوس والذين أشركوا في سورتي البقرة والمائدة وذكرهما في سورة الحج ، وذلك في قوله تعالى في سورة [البقرة: ٦٢]{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }.

وقوله تعالى في سورة [المائدة: ٦٩] {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وقوله تعالى في سورة [الحج: ١٧]{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } .

ولم يتناول هذا الاختلاف إلا ابن الزبير الغرناطي وابن عاشور ، ويوضح ابن عاشور سر الاختلاف بقوله : " وذكر المؤمنين واليهود والنصارى والصابِئين تقدم في آية البقرة وآية العقود ، وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين، لأن الآيتين المتقدمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمة ، وزيد في هذه السورة ذكر المجوس والمشركين ؛ لأن هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى

---

[1] منهاج الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) في ضوء البناء التركيبي لصورة المعنى القرآني- سورة النحل نموذجًا- أ. د / محمود توفيق – " بحث منشور ضمن ندوة الدراسات البلاغية- الواقع والمأمول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام ١٤٣٢ هـ " – صـ :٢١ .

الله في الحكم بين أهل الملل ، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر" .[1]

وابن عاشور توجيهه للمتشابه أكثر تفصيلًا وبيانًا وجلاءً لسر الاختلاف من توجيه ابن الزبير الغرناطي ، يقول ابن الزبير الغرناطي: " آية سورة الحج إنما وردت معرفة بمن ورد فى القيامة على ما كان من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك ، والآي الأخر فيمن ورد مؤمنًا فافترق القصدان " [2]

وما ذكره ابن الزبير ليس كاف في إدراك سر الاختلاف ، وإن كان هو الذي بنى عليه ابن عاشور توجيهه، فكان لابد من إضافة على توجيه ابن الزبير ، بأن يوضح : لماذا وردت آية سورة الحج معرفة بمن ورد فى القيامة على ما كان من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك ؟ ولماذا وردت الآي الأخر معرفة بمن ورد مؤمنًا ؟ وهو ما بينه الطاهر .

ومنه توجيهه الاختلاف بين قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (٥)} [الحج]، وقوله تعالى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)} [غافر].

وموضع الاختلاف الذي تناوله الطاهر بين الآيتين عطف (لتكونوا شيوخًا) على (لتبلغوا أشدكم) في سورة غافر، ولم يقع ذلك العطف في سورة

---

[1] التحرير والتنوير – الدار التونسية ١٩٨٤ م – ١٧/٢٢٢-٢٢٣.

[2] ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي – دار الكتب العلمية– بيروت– ١/ ٤٥.

الحج، ولم يتناول أحد من علماء المتشابه أو المفسرين هذا الموضع من الاختلاف إلا الطاهر .

وقد ارتكز الطاهر في توجيهه على مراعاة الهدف من سياق كل آية، فآية سورة غافر وردت للامتنان ، وأما آية سورة غافر فوردت للاستدلال على البعث .

يقول تعليقًا على آية سورة غافر : " عطف طور الشيخوخة على طور الأشد بِاعتبار أن الشيخوخة مقصِد للأحياء لحبهم التعمير، وتلك الآية وردت مورد الامتنان فذكر فيها الطور الذي يتملى المرء فيه بِالحياة، ولم يذكر في آية سورة الحج لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم فلم يذكر فيها من الأطوار إلا ما فِيه ازدياد القوة ونماء الحياة دون الشيخوخة القريبة من الاضمحلال" [1] .

وما ذكره الطاهر جهد طيب يدل على سعة علمه وبصره بأسرار كتاب الله الذي يسمو على كل تعبير في دقة بيانه .

ومنه توجيهه الاختلاف بين قوله تعالى في فصلت : { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) } .

وقوله تعالى في سورة النور{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) }.

وقد أبان الطاهر عن سر تخصيص الشهادة بالسمع والأبصار والجلود في فصلت معتمدًا على موضوع السياق وهو استحقاقهم للعذاب يقول: " لأن للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبي ﷺ وتلقي آيات القرآن،

[1] التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٠١

فسمعهم يشهد عليهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك ، كما حكى الله عنهم بقوله: (وفي آذاننا وقر) [فصلت: ٥] ، ولأن للأبصار اختصاصًا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها ، فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر؛ ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح ".

وبهذا يظهر وجه الاقتصار عند الطاهر على شهادة السمع والأبصار والجلود في آية سورة فصلت ، أما آية سورة النور [٢٤] فموضوع السياق يقتضي عنده أن تقتصر الشهادة على الألسنة والأيدي والأرجل دون غيرها وذلك" لأن آية النور تصف الذين يرمون المحصنات، وهم الذين اختلقوا تهمة الإفك ومشوا في المجامع يشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكًا."[١]

فما ذكره الطاهر يدل على استحالة أن يتفق التركيبان ، بل لابد من الاختلاف ، فما ذكره دقيق وجيد في إدراك سر الاختلاف ، هذا على الرغم من أن كتب المتشابه والتفسير لم تتناول هذا الموضع من المتشابه ، فاختص الطاهر بالإشارة إليه ، وبيان سره البياني الدقيق ،

مراعاة السياق السابق

كتوجيهه للمتشابه في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [النساء: ١٣٥].

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ

[١] التحرير والتنوير: ٢٦٧/٢٤

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا } [المائدة: ٨].

فالطاهر يراعي في توجيه المتشابه ما بني عليه كل موضع ، أو بعبارة أخرى المعاني السابقة لموضع التشابه التي تدعو إلى اختلاف في النظم ، ففارق بين تعبير يأتي بعد الدعوة إلى العدل في الحقوق ، وآخر يأتي بعد التذكير بعهد الله وميثاقه.

يقول : " الآية التي فِي سورة النساء وردت عقب آيات القضاء فِي الحقوق المبتدأة بِقوله : (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ) [النِّسَاء: ١٠٥] ، ثم تعرضت لقضية بني أُبَيْرِقٍ فِي قوله: (وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً) [النِّسَاء: ١٠٥] ، ثم أردفت بِأحكام المعاملة بين الرجال والنساء ، فكان الأهم فيها أمر العدل فالشهادة؛ فلذلك قدم فيها (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ)[النِّسَاء: ١٣٥] فالقسط فيها هو العدل في القضاء ، وأما الآية التي نحن بِصدد تفسيرها فهي واردة بعد التذكير بِميثاق اللَّه ، فكان المقام الأول للحض على القيام لِلَّه ، أي الوفاء له بِعهودهم له ، ولذلك عدي قوله : ((قَوَّامِينَ)) بِاللام " [١].

وبذلك يتوافق الطاهر مع الغرناطي في الاعتماد على السياق السابق في توجيه المتشابه. [٢]

وأما الخطيب الإسكافي فيراعي ضابطًا آخر هو اختلاف المخاطب ، ففي آية النساء الخطاب عام يدعو إلى العدل مع كل ظالم حتى يؤخذ منه الحق ، والبعد عن الهوى والميل إلى ذوي القربى ، والدليل على ذلك قوله تعالى بعده: ((وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)) ، وفي آية المائدة الخطاب للولاة فيكون المعنى كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل ، والدليل على أن الخطاب لولاة الأحكام قوله تعالى بعده : ((وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ

[١] التحرير والتنوير : ٦/ ١٣٥-١٣٦.

[٢] ملاك التأويل: ١/ ١١١ .

عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)) [1].

فقدم في كل آية ما يناسب المخاطب بالآية ، فخطاب عام يدعو إلى العدل مع كل أحد حتى مع ذوي القربى المناسب فيه تقديم ما يدل على العدل وهو لفظ (القسط) ، أما الخطاب الموجه لولاة الأحكام من أجل التزام العدل فالمناسب فيه تقديم لفظ الجلالة .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٣٢) } .

وقوله تعالى في سورة العنكبوت: { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) }.

يقول ابن عاشور : (وقد زادت هذه الآية – يقصد الآية في سورة العنكبوت – بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث، ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام).

وقد علل الطاهر الاختلاف في نظم الآيتين ناظرًا إلى السياق السابق في كلتا الآيتين ، فأما آية سورة العنكبوت فهي عنده (لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة؛ فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها) .

وَأَما آية سورة الأنعامِ فهو يرى فيها أنه قد " تقدم قوله : (حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلى مَا فَرَّطْنا فِيها) [الْأَنْعَام: ٣١] فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى " [2] ، وهذا عنده يدل على تحقير الحياة الدنيا، فلا داعي لتحقيرها مرة

---

[1] درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي – دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين– الناشر: جامعة أم القرى– وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها– معهد البحوث العلمية مكة المكرمة– الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م –١/ ٤١٩–٤٢٠.

[2] التحرير والتنوير ٢١/٣١.

أخرى باسم الإشارة كما في سورة العنكبوت.

فالطاهر اعتمد في توجيهه على السياق السابق وما يقتضيه في كل موضع ، وهي نكتة لم يسبق فيها الطاهر ، ومن المفسرين الذين تناولوا هذا الموضع من المتشابه الفخر الرازي ، وهو يعتمد كذلك على السياق ولكن لنكتة أخرى غير ما ذكره الطاهر ، يقول الرازي : " قال اللَّه تعالى في سورة الأنعام : ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا)) [الأنعام: ٣٢] ، ولم يقل : وما هذه الحياة ، وقال هاهنا- يقصد العنكبوت - : ((وما هذه)) فنقول : لأن المذكور من قبل ها هنا أمر الدنيا، حيث قال تعالى: ((فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها)) [العنكبوت: ٦٣] فقال : هَذِهِ ، والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال: ((يَا حَسْرَتَنا عَلى مَا فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ)) [الْأَنْعَامِ: ٣١] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا)[1].

وبذلك يكون الرازي والطاهر يوجهان المتشابه بناء على مدى تناسب اسم الإشارة مع السياق ، مع اختلاف في النكتة التي يبني كل منهما توجيهه عليها ، وما ذهب إليه كل منهما جدير بالاعتبار ويصلح لتوجيه المتشابه ، وبذلك يكون السياق من أكثر من جهة يدعو إلى الاختلاف في النظم .

- **مراعاة السياق اللاحق**

كتوجيهه الاختلاف بين إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى في سورة الفرقان : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)} وإضماره في قوله تعالى في سورة يس : {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)}.

والطاهر بنى توجيه إظهار لفظ الجلالة في سورة يس على التمهيد

---

[1] مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- ١٤٢٠هـ ٧٥/٢٥.

للسياق اللاحق ، وهو تسلية الرسولﷺ وإزالة الأسى والحزن من قلبه ، يقول : " والإتيان بِاسم الجلالة العلم دون ضمير إظهار في مقام الإضمار لما يشعر به اسمه العلم من عظمة الإلهية إيماء إلى أن اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة ليكون ذلك توْطئة لقوله بعده : ((فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)) [يس: ٧٦]أي فإنهم قالوا ما هو أشد نكرًا "[١].

وأما الإسكافي فقد بنى إظهار لفظ الجلالة على مراعاة الأصل في اللغة ، ذلك من جهة أنه لم يتقدم ظاهر يقع الإضمار بعده ، وإنما تقدمه ضمير المتكلم ابتداءً من قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) [٢].

وأما الكرماني فقد رأى أن الإظهار لأمن اللبس ، وعبارته هكذا : " صرح بلفظ الجلالة كيلا يؤدي إلى مخالفة الضمير قبله " [٣] ، وقد ذكر محقق الكتاب أن أول ضمير غائب مفرد في سورة يس سبق قوله : ((وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ)) يعود للرسولﷺ ، وذلك في قوله تعالى : ((وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه)) فكان المقام مقتضيًا التصريح بلفظ الجلالة لئلا يؤدي إلى الالتباس[٤] ، ووافقه الغرناطي وابن جماعة والأنصاري و الفيروزآبادي [٥].

---

[١] التحرير والتنوير ٢٣/ ٧٠.

[٢] درة التنزيل وغرة التأويل ٣/ ١٠٨٨.

[٣] البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني –تحقيق : أحمد عز الدين خلف الله – دار الوفاء– الطبعة الأولى ١٤١١هـ– صـ: ٢٨٢ .

[٤] حاشية كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ :٢٨٢ .

[٥] ملاك التأويل ٢/ ٣٧٤، وكشف المعاني فى المتشابه من المثاني لابن جماعة – تحقيق : د/ عبد الجواد خلف– دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٠هـ–١٩٩٠ م– صـ : ٣٠٥، وفتح الرحمن لزكريا الأنصاري – تحقيق : محمد علي الصابوني– دار القرآن الكريم– بيروت– الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ–١٩٨٣ م – صـ : ٤٠٢، وبصائر ذوي

وهكذا يكون ما ذهب إليه الطاهر لم يسبق إليه أحد من علماء المتشابه ، وهو أجود ما ذكر في توجيه سر إظهار الضمير ، ويليه ما ذكره الكرماني ، وتابعه فيه الغرناطي وابن جماعة والأنصاري و الفيروزآبادي .

وأما إضمار لفظ الجلالة في سورة الفرقان فقد بناه الطاهر على مراعاة الأصل في اللغة ، يقول : " وأما الإضمار في قوله في سورة الفرقان [٣] : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) فلأنه تقدم ذكر انفراده بالإلهية صريحًا من قوله:(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) [الْفرْقَان: ٢] "[1]، وهذا التوجيه ذهب إليه الخطيب الإسكافي وتابعه الكرماني وابن جماعة والأنصاري[2].

- **مراعاة موقع الآيات محل المتشابه داخل السور**

كتعليقه على قوله تعالى في سورة فاطر : { أو لم يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) } .

يقول رحمه الله معلقًا على الآية السابقة : " وجملة (وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) في موضع الحال ، أي كان عاقبتهم الاضمحلال مع أنهم أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب ، وجيء بِهذه الحال في هذه

التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي – تحقيق : محمد علي النجار– المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة–١٤١٦هـ–١٩٩٦ م –١/ ٣٩١.

[1] التحرير والتنوير ٢٣/ ٧٠.

[2] درة التنزيل ٣/ ١٠٨٦ ، البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ٢٨٢ ، كشف المعانى صـ: ٣٠٥ ، فتح الرحمن صـ :٤٠٣ .

الآية لما يفيده موقع الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثارًا للإيجاز لاقتراب ختم السورة ، ولذلك لم يؤتَ في نظائرها بِجملة الحال ، ولكن أتي فيها بِجملة وصف في قوله في سورة غافر [٢١] : { الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ }، وفي سورة الرّوم [٩] : { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ } حيث أوثر فيهما الإطناب بتعداد بعض مظاهر تلك القوة " [١].

فالذي يراه الطاهر أن الذي يليق بختام السور الإيجاز، ولذلك يكفي الحال التي تستحضر في الذهن صورة قوة الأمم السابقة ، وهذا ما كان في ختام سورة فاطر ، وأما الآيات الأخر فليست ختامًا ؛ ولذلك أوثر فيها الإطناب بتعداد مظاهر قوة الأمم السابقة.

وما ذكره الطاهر في توجيه المتشابه جدير بالاعتبار إلى جانب ما ذكره القوم من أسرار أخرى ، حيث أدار القوم توجيه المتشابه حول اعتبار آخر هو رعاية تلاؤم البناء التركيبي فقد ذكر الخطيب الإسكافي أن حذف الواو في هذا الموضع من المتشابه ؛ لأن التقدير لما قال : ((كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم)) [الروم : ٩] صار كأن سائلاً سأل فقال : كيف كانوا ؟ وبماذا عوملوا ؟ فجاء (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّة) ، وإذا كان كذلك لم يحتج إلى الواو كما احتاج إليها ما في سورة " فاطر "؛ لأن تلك تضم ما بعدها إلى ما قبلها ، كأنه قال : فينظروا كيف أُذلّوا وكانوا أعز منكم عزة ، وكيف أضعفوا وكانوا أشدّ منكم قوة ، أي لحقهم ذلك في حال متناهية بهم من أحوال الدنيا فأُبدلوا بحالهم غيرها[٢]، وهذا التوجيه لذكر الواو في (غافر) ذكره كذلك الكرماني وابن جماعة[٣].

---

[١] التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٨ .

[٢] درة التنزيل ٣/١٠٣٦ وما بعدها "بتصرف يسير".

[٣] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٦٧ ، وكشف المعاني صـ : ٢٩٣ .

ثانياً : مراعاة المقام .

المقام هو العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص ، أو بعبارة أدق هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى .

والمقام هو من أكثر الدعائم التي اهتم بها الطاهر في تفسيره على وجه العموم ، وفي توجيه الاختلاف في الآيات المتشابهة على الأخص ، ويدل على ذلك قوله دالًا على أهمية المقام ومرشدًا إلى الحذر من الغفلة عنه : " وممّا يجب التنبيه له أن مراعاة المقام في أن ينظم الكلام على خصوصيات بلاغية هي مراعاة من مقومات بلاغة الكلام وخاصة في إعجاز القرآن، فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات تتساءل نفس المفسر عن دواعيها وما يقتضيها فيتصدى لتطلب مقتضيات لها ، ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية، في حال أن مقتضياتها في الواقع منوطة بِالمقامات التي نزلت فيها الآية "[1]

[1] التحرير والتنوير: ١/١١١.

وقد ارتكزت توجيهاته المرتبطة بالمقام على العناصر التالية :

- **اختلاف المخاطب.**

ومن ذلك توجيه الاختلاف بين قوله تعالى : {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام :١٣٥] .

وقوله تعالى : ({ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } [هود :٩٣] .

فقد بين الطاهر أنه قرنت جملة ((فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)) بالفاء في آية سورة الأنعام ، بينما بني قوله تعالى ((سَوْفَ تَعْلَمُونَ)) في آية سورة هود على شبه كمال الاتصال أو ما يسمى بالاستئناف البياني فلم يقرن حرف (سوف) بالفاء .

يقول في توضيح الاستئناف البياني في آية هود : " لما فاتحهم بالتهديد كان ذلك ينشىء سؤالًا في نفوسهم عما ينشأ على هذا التهديد ، فيجاب بالتهديد بـ (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ".

ويبين الداعي لبناء النظم على الاستئناف البياني في آية هود دون آية الأنعام فيقول عقب ما سبق : " ولكونه كذلك كان مساويًا للتفريع بِالفاء الواقع في آية الأنعام في المآل، ولكنه أبلغ في الدلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التي قبلها، ففي خطاب شعيب- عليه السلام- قومه من الشدة ما ليس في الخطاب المأمور بِهِ النبي ﷺ في سورة الأنعام جريًا على ما أرسل اللَّه به رسوله محمدًا ﷺ من اللين لهم"[١].

فالطاهر يرى أن خطاب شعيب في سورة هود فيه من الشدة في التهديد ما يجعل قومه يتساءلون عما يترتب على هذا التهديد فيجاب

[١] التحرير والتنوير: ١٢ / ١٥٣.

بالوعيد: ((سَوْفَ تَعْلَمُونَ)) ، أما خطاب النبي ﷺ فليس فيه هذه الشدة ؛ فلا ينشىء سؤالًا عما يترتب على التهديد .

وتوجيه الاختلاف في النظم بناء على الاستئناف البياني ذهب إليه الزمخشري ، وهو يرى أن داعيه هو التفنن في البلاغة على عادة فصحاء العرب يقول : الزمخشري " فإن قلت : أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سَوْفَ تَعْلَمُونَ)؟ قلت: إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفى تقديرىّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر ، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف "[1].

وكذلك قام توجيه المتشابه على الاستئناف البياني عند الرازي وأبو حيان والألوسي ، وقد زادوا في التوجيه أن الاستئناف البياني أكمل في باب الفظاعة والتهويل[2] .

أما الكرماني والغرناطي فقد قام توجيه المتشابه عندهما على مراعاة تلاؤم البناء التركيبي فالفاء في آية الأنعام واقعة في جواب شرط مقدر يستدعيه التركيب ، أما آية هود فلا يصلح فيها تقدير الشرط يقول الغرناطي عن آية الأنعام : " وقد افتتحت بأمره سبحانه نبيه عليه السلام بوعيدهم فى قوله سبحانه وتعالى: (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم) فقوى تقدير معنى الشرط المنجر تقديره فى الأوامر لافتتاحها بأمره تعالى نبيه عليه السلام ثم

---

[1] الكشاف للزمخشري – دار الكتاب العربي– الطبعة الثانية –٢٨٩/٢ ، وما بعدها.

[2] مفاتيح الغيب للرازي ٤٢/١٨ ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي– دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ–٢٠٠١ م– تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ٢٥٧/٥ ، وروح المعاني للألوسي تحقيق : علي عبد الباري عطية– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ –٣٢١/٦.

أمره عليه السلام لهم فى قوله : (اعْمَلُوا) فاعتضد ما يستدعى الجوابية بالفاء فوردت فى الجواب المبنى على الشرط المقدر بعد هذا الأمر ، ولما كانت آية هود إخبارًا لنبينا عليه الصلاة والسلام ، فضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء "[1].

وما ذكره الزمخشري في بناء آية هود على الاستئناف البياني هو بداية بيان سر الاختلاف ، وقد التقطها الطاهر ودعمها فأبان عن السر البياني وراء بناء آية سورة هود على الاستئناف البياني دون آية سورة الأنعام .

وهو توجيه طيب يرتكز على اختلاف المخاطب وحاله كما مر، أما ما ذهب إليه الكرماني والغرناطي ، فهو يتكئ على مراعاة البناء التركيبي ، وهو تعليل جيد كذلك.

ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } (الزمر: ٤١).

إذ يقول معلقًا على الآية السابقة : " وتقدم نظير هذه الآية في قوله : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} آخر سورة يونس [١٠٨] ، وفي قوله : { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } في آخر سورة النمل [٩١، ٩٢] ، ولكن جيء في تينك الآيتين بِصيغة قصر الاهتداء على نفس المهتدي ، وترك ذلك في هذه السورة " .

ويوجه اختلاف النظم باختلاف المخاطب " ذلك أن تينك الآيتين واردتان بِالأمر بِمخاطبة المشركين، فكان المقام فيهما مناسبًا لإفادة أن فائدة اهتدائهم لا تعود إلا لأنفسهم ، أي ليست لي منفعة من اهتدائهم ، خلافًا

[1] ملاك التأويل ١/١٧١-١٧٢ "بتصرف "، وينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ٥٤ .

لهذه الآية فإنها خطاب موجه من اللَّهِ إلى رسوله ﷺ ، ليس فيها حال من ينزل منزلة المدل بِاهتدائه" [1].

وهذا توجيه دقيق من الطاهر لم يسبقه إليه غيره ، فكل مخاطب له طريقة في بناء خطابه تختلف باختلاف حاله ، فالمشركون يدعون أن فائدة اهتدائهم تعود للرسولﷺ لا لأنفسهم ، ولذا كان المناسب في خطابهم أسلوب القصر الذي يفيد قصر فائدة اهتدائهم على أنفسهم لا على الرسل ، بخلاف الرسولﷺ فليس على هذا النحو من الاعتقاد فلا يحتاج خطابه إلى هذا الأسلوب .

ولم أجد من علماء المتشابه أو المفسرين من يشير إلى نكتة هذا الاختلاف إلا الكرماني الذي يعتمد في توجيهه على ترتيب النزول ، إذ يقول: " قوله {فَمن اهْتَدَى فلنفسه} وفي آخرها – يقصد سورة النمل – {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لنَفسِهِ} لأن هذه السورة – أي سورة الزمر – متأخرة عن تلك السورة فاكتفى بِذكره فيها" [2] ووافقه الفيروزآبادي "[3].

وفي تقديري أن ما ذكره الطاهر يليق بالإعجاز ، وهو يناسب التحليل البياني وبلاغة القرآن وسمو نظمه .

- **اختلاف المتحدث عنه.**

كتوجيهه الاختلاف بين قوله تعالى : {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [النساء: ٤٦]، وقوله تعالى: { وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}[المائدة: ٤١]

يقول تعليقًا على آية المائدة : " وقال هنا : ((مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ))، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ [٤٦] ((عَنْ مَواضِعِهِ))، لأن آية سورة النساء في وصف

---

[1] التحرير والتنوير :٢٤/ ٢٢.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ٢١٩.

[3] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٤٠٧.

اليهود كلهم وتحريفهم في التوراة ، فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التوراة أو في ألفاظها ، فكان إبعادًا للكلام عن مواضعه ، أي إزالة للكلام الأصلي سواء عُوِّضَ بغيره أو لم يعوض، وأما هاته الآية ففي ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام ، فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر ، فكان قوله: ((مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ)) أبلغ في تحريف الكلام ، لأن لفظ (بَعْدَ) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة ، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة "[1].

فآية النساء عند الطاهر تتناول عموم اليهود وما وقعوا فيه من تحريف للتوراة سواء في معانيها أو في ألفاظها ، وأما آية المائدة فهي في طائفة مخصوصة من اليهود أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة مع بقائه فيها.

وقد اعتمد أغلب من تناول الاختلاف في هذا الموضع قبل الطاهر على هذا الأساس في توجيه المتشابه ، ولكن من وجه آخر غير ما تناوله الطاهر ، فداعي الاختلاف عندهم أن الآية الأولى في أوائل اليهود ، والأخرى فيمن كان منهم في زمن النبي ﷺ ، يقول الغرناطي معلقًا على آية سورة المائدة: " فلما كان هذا الإخبار بحال خلفهم، والأول إخبار بحال سلفهم ناسب حال الأولين ذكر ما تناولوه بأنفسهم وباشروه بالتحريف والتبديل ، فقيل : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) فهم المزيلون لما خوطبوا به عما أريد به لم يتقدمهم فى ذلك غيرهم ، وأما المعاصرون فقد حرفوا أيضًا بعد الاستقرار " [2] ، وذهب إليه الإسكافي والكرماني وابن جماعة والأنصاري

[1] التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٠ .

[2] ملاك التأويل : ١/ ١٢٢-١٢٣ .

والفيروزآبادي[1].

ومنه توجيهه حذف جملة (اسْتَوى) في قوله تعالى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) } (يوسف:٢٢) ، والتي وردت في قوله تعالى: { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) }(القصص : ١٤) .

فقد بين الطاهر أنه لا يرتضى القول بالتوافق في الدلالة بين (بَلَغَ أَشُدَّهُ)و(اسْتَوى) ، فبلوغ الأشد عنده هو كمال القوة ، والاستواء كمال البنية ؛ ولهذا وصف عنده موسى بالاستواء دون يوسف ، فقد كان موسى رجلًا طوالًا .

يقول الطاهر تعليقًا على آية سورة القصص : " وتقدم نظير هذه الآية في سورة يوسف، إلا قوله : ((وَاسْتَوى)) فقيل: إن استوى بِمعنى بلغ أشده، فيكون تأكيدًا، والحق أن الأشد كمال القوة لأن أصله جمع شدة بِكسر الشين بوزن نعمة وأنعم ، وهي اسم هيئة بِمعنى القوة ثم عومل معاملة المفرد، وأن الاستواء: كمال البنية كقوله تعالى في وصفِ الزرع: ((فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ)) [لفتح: ٢٩] ، ولهذا أريد لموسى الوصف بِالاستواء ، ولم يوصف يوسف إلا بِبلوغ الأشد خاصة؛ لأن موسى كان رجلًا طُوَالًا كما في الحديث « كَأَنَّهُ من رجال شنوءة» فكان كامل الأعضاء "[2].

وما ذكره الطاهر تعليق حسن لم يسبقه إليه أحد من علماء المتشابه ، وإن كان ما ذهبوا إليه معتبرًا وحسناً كذلك .

وأيضًا قد قام توجيههم على مراعاة اختلاف المتحدث عنه ، ولكن من

---

[1] ينظر درة التنزيل ٤٣٥/١-٤٣٦ ، والبرهان في متشابه القرآن صـ : ١٠١ ، وكشف المعانى صـ : ١٤٧، وفتح الرحمن صـ : ١٣٣، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٨٢/١ .

[2] التحرير والتنوير: ٢٠ / ٨٧.

وجه آخر غير ما ذهب إليه الطاهر، ومؤداه أن يوسف عليه السلام قد نُبه إلى ما يراد منه قبل أن يبلغ سن الأربعين بالوحي إليه حين ألقي في الجب ورؤياه الكواكب ، أما موسى عليه السلام فلم يُنبه إلى ما يراد منه قبل أن يبلغ الأربعين ، فناسبه (اسْتَوى) ، وهذا على القول بأن الاستواء بلوغ الأربعين، وهذا ما ذهب إليه الخطيب الإسكافي [1] وتابعه فيه الكرماني والغرناطي وابن جماعة وأبو يحيى الأنصاري [2].

- **اختلاف المقصود من موضع التشابه.**

كتوجيهه الخلو من حرف التوكيد في فاصلة قوله تعالى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [آل عمران: ١١] وذكر حرف التوكيد في فاصلة قوله تعالى : {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [سُورَة الْأَنْفَال : ٥٢].

يرى الطاهر أن المقصود من موضع التشابه مختلف في الآيتين، فقد قصد به في الآية الأخيرة " التعريض بِالمشركين، وكانوا ينكرون قوة اللَّه عليهم بِمعنى لازمها، وهو إنزال الضر بِهم، وينكرون أنه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر بِاعتبار لازمه التعريضِي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين".

فليس المقصود من موضع التشابه عند الطاهر في سورة الأنفال محض الإخبار بكون الله شديد العقاب، ولكن قصد التعريض والوعيد للمشركين الذين ينكرون الخبر ، وهذا يناسبه التوكيد .

ولعل مما يدلل على صحة ما ذهب إليه الطاهر زيادة وصف (قوي) في

---

[1] درة التنزيل ٧٩٦/٢.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٩٤، ملاك التأويل ٩٦٧/٢-٩٦٨ ، كشف المعاني صـ : ٢١٥ ، فتح الرحمن صـ : ١٩٩ .

هذه الآية دون الآية الأخرى مبالغة في التهديد .

وأما المقصود من موضع المتشابه في آية آل عمران فهو مجرد الإخبار والتذكير للمسلمين يقول : " وفي سورة آل عمران [١١] لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله عقبه: ((قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)) [آل عمرَان: ١٢] الْآيَةَ "[١]، ولذا لم تحتج الفاصلة إلى توكيد.

ولعل أقوى دليل على اختلاف المقصود هو اختلاف المخاطب كما يفيد كلام الطاهر .

وأما الغرناطي فهو يراعي السياق السابق ، فهو يرى أن في آية الأنفال تقابل بين ما ورد في الآية والسياق السابق عليها من حديث للشيطان عن قوة أوليائه ونصرته لهم ، وهو قوله تعالى : ((لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُم)) [الأنفال :٤٨] ، وهذا يستدعي التوكيد في موضع التشابه أو المقابل لقول الشيطان ، وهو قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٢].

ومنه توجيه الاختلاف في فعل الإرسال بين المضارع والماضي في قوله تعالى : {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الروم :٤٨] وقوله تعالى : { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } [فاطر : ٩].

وقد بنى الطاهر توجيه الاختلاف على اختلاف المقصد من الفعلين ، يقول في التعليق على آية فاطر : " ولم يؤت بِفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بِخلاف قوله في سورة الروم [٤٨] : ((اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ

---

[١] التحرير والتنوير : ١٠/ ٤٤.

[٢] ملاك التأويل : ١/ ٧٩.

الرِّياحَ)) الْآيَةَ ؛ لأن القصد هنا استدلال بِما هو واقع إظهارًا لإمكان نظيره ، وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع اللَّه ونعمه "[1].

والطاهر يقصد بقوله : (لأن القصد هنا استدلال بِما هو واقع إظهارًا لإمكان نظيره) الاستدلال على صحة وقوع البعث بإحياء الأرض بعد موتها.

أما الخطيب الإسكافي فقد راعي أمرين ، الأول : التوافق اللفظي مع زمان الأفعال السابقة في كل سياق ، والآخر هو اختلاف المقصد من كل سياق ، فالغرض من السياق عنده في آية الروم الحث والاعتبار بما يعتاد فعله ، فيناسبه صيغة المضارعة ، وفي سورة فاطر الغرض من السياق عنده هو الثناء على الله بما صنع فيناسبه صيغة الماضي ، يقول : " وأما في سورة الروم فإن قبل الآية: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ...) الروم: ٤٦، فبنى قوله: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ..) على البناء الذي جعل عليه ما هو من آياته، فحث على الاعتبار بما يعتاد من فعله تبارك الله سبحانه وتعالى، وأما في سورة الملائكة، واختيار لفظ الماضي فيها على المستقبل فلأن أولها: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ...) [فاطر: ١] بمعنى فطر وجعل، وخاتمة هذه العشر من مبتدأ السورة: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ...) [فاطر: ٩] فلما افتتح العشر من أول السورة بالتمدح بما صنع أتبعه ما كان من جنسه مما فعل، فكان اختيار لفظ الماضي هاهنا "[2].

وتوجيه الطاهر كتوجيه الإسكافي توجيه معنوي مستفاد من مقاصد السياق ، ولا تعارض بين كلا التوجهين ، فكل منهما ناظر إلى ناحية تستدعي التغاير ، ولكن الطاهر لا يذهب كالإسكافي إلى داع آخر للاختلاف

---

[1] التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٦٨.

[2] درة التنزيل وغرة التأويل ٢/ ٥٩١ ، وما بعدها.

، وهو التوافق مع زمن الأفعال الأخرى في السياق ، وهذا التوافق اللفظي قد اقتصر عليه الكرماني وابن جماعة والفيروزآبادي [١].

ثالثاً : مراعاة التلاؤم بين ألفاظ النظم.

اهتم الطاهر في توجيه المتشابه بالنظرة الكلية في تناسب ألفاظه ، وتناغم البناء التركيبي للنظم في تحقيق الهدف المسوق له الكلام ، ويدل على أهمية هذا الأساس قول الإمام عبد القاهر : " واعلمْ أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك.... أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك.. "[٢].

ومن توجيه الطاهر المتشابه بناء على مراعاة هذا الأساس توجيه الوصل في قوله تعالى في سورة البقرة : {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) } ، وتوجيه الفصل في قوله تعالى في سورة الأعراف : {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) } .

يقول الطاهر في التعليق على آية الأعراف : " وجملة (سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) مستأنفة استئنافًا بيانيًا ، لأن قوله: (نَغْفِرْ لَكُمْ) في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة مما يثير سؤال سائل يقول : وهل الغفران هو قصارى جزائهم ؟ فأجيب

---

[١] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ: ٢٠٩ ، وكشف المعانى صـ: ١٧٦ ، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٣٨٧.

[٢] دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر– الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة– الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م– صـ:٩٣.

بِأن بعده زيادة الأجر على الإحسان، أي على الامتثال "[1] .

فجملة (نغفر لكم) في مقام الامتنان والتفضل تستدعي استفهامًا مفاده : هل يجزون بأكثر من المغفرة ؟ وهذا عند الطاهر لا يتحقق في آية البقرة ؛ لأن جملة (نغفر لكم) فيها جاءت حكاية لأقوال الله تعالى لبني إسرائيل ، فهي تتطلب عطف الأقوال بالواو ، ولا تستدعي استفهامًا يقول : " وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة [٥٨] ذكرت جملة (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) معطوفة بِالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين ، فالواو هنالك لحكاية الأقوال، فهي من الحكاية لا من المحكِيِّ أي قلنا وقلنا سنزيد "[2].

ويبدو من تحليل الطاهر لسر التشابه أنه يدور حول مراعاة تلاحم النظم ، والبحث عما يوجب تآلف أجزاء التراكيب وتناسق البناء.

وما ذكره الطاهر قريب مما ذهب إليه الكرماني وتابعه فيه الأنصاري ، يقول الكرماني : " وفي هذه السورة { وَسَنَزِيدُ } وفي الأعراف { سَنَزِيدُ } بِغير واو ؛ لأن اتصالها في هذه السورة أشد لاتفاق اللفظين واختلفا في الإعراب؛ لأن اللائق { سَنَزِيدُ } محذوف الواو ليكون استئنافًا للكلام "[3].

وقد تميز الطاهر عن الكرماني ببيان الوجه الذي من أجله بني الأسلوب على الفصل بالاستئناف البياني في آية الأعراف، لا مجرد الاقتصار على القول بأن الأسلوب مبني على الاستئناف البياني في سورة الأعراف كما ذكر ذلك الكرماني، وتابعه فيه الأنصاري .

وأما توجيهه للوصل في آية البقرة فيكاد يكون هو تحليل الكرماني، ولكن بصورة أكثر توضيحًا لجمال الأسلوب وقوة الداعي للوصل.

وأما ابن الزبير الغرناطي فقد راعي التناسب مع السياق السابق

---

[1] التحرير التنوير : ٩ / ١٤٥ .

[2] نفس المرجع السابق والصفحة .

[3] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ٢٠ ، وينظر فتح الرحمن صـ : ٢٨ .

يقول في التعليق على آية البقرة : " المتقدم قبل هذه الآية من لدن قوله سبحانه: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم) [البقرة : ٤٧] إنما هي آلاء ونعم كما تقدم عددت عليهم على التفصيل شيئًا بعد شيء ، فناسب ذلك عطف قضية الزيادة بالواو ليجرى على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعام بالعفو عن الزلات والامتنان بضروب الإحسان، لهذا القصد من إحراز التعداد ورد: (وَسَنَزِيدُ) هنا بالواو ، ولم يكن ليحصل ذلك لو لم ترد الواو هنا ، وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد فى سورة البقرة".[١]

ومنه توجيه اختلاف العطف بالفاء والواو في آيتي الحج ، وهما قوله تعالى في الآية (٤٥) : { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } وقوله تعالى في الآية (٤٨) : {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ }.

يقول الطاهر : " وأما عطف جملة (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاها) [الحج: ٤٥]- بِالفاء- وعطف جملة (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ) - بِالواو- فلأن الجملة الأولى وقعت بدلًا من جملة (فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ)[الحج: ٤٤] فقرنت- بِالفاء- التي دخلت نظيرتها على الجملة المبدل منها، وأما هذه الجملة الثانية فخلية عن ذلك فعطفت بِالحرف الأصلي للعطف "[٢] .

وهذا القول ذهب إليه الزمخشري وتابعه فيه الرازي وابن جماعة [٣]، وهو يلاحظ العلاقات بين التراكيب ، فجملة (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ....) هي بدل من: جُمْلَةِ (فَكَيْفَ كانَ نَكِير) فحق أن تدخل عليها الفاء التفسيرية، وليس كذلك جملة (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) .

---

[١] ملاك التأويل : ١/ ٣٨.

[٢] التحرير والتنوير : ١٧/ ٢٩٣.

[٣] الكشاف : ٣ / ١٦٣ ، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٣٤ ، وكشف المعانى صـ: ٢٦٣ .

رابعاً: التفنن

وهو أحد الأسس اللفظية التي اتكأ عليها الطاهر في التوجيه ، وهو معتبر عنده وجه من وجوه الإعجاز القرآني ومقصد من مقاصد النظم العالي ، يقول : " تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ ، فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها ..... فذلك وجه من وجوه الإعجاز "[1].

وفي تقديري أن التفنن من دواعي الاختلاف في الصياغة وضرب من ضروب البيان ، ولكنه لا يستقل بالتوجيه ، بل لابد أن يقترن به وجه آخر يعود إلى المعنى ، ويدل على ذلك أنه لا يعدم في الآيات التي وجهها الطاهر تبعًا للتفنن أسرار أخرى معنوية سواء نص عليها الطاهر أو غيره من العلماء .

ومن توجيه المتشابه بناء على مراعاة التفنن توجيه الاختلاف بين قوله تعالى في الأعراف : { وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) }.

وقوله تعالى في الشعراء : { فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)}.

يقول الطاهر في التعليق على الآيتين الأخيرتين : " تقدم نظيرها في سورة الأعراف بِقوله:((وَجَاءَ السَّحَرَة)) [الأعراف: ١١٣] وبطرح همزة الاستفهام إذ قال هناك : ((إِنَّ لَنا لَأَجْراً)) [الأعراف: ١١٣] ، وهو تفنن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلا تعاد كما هي، وبِدون كلمة إذاً " [2]

والطاهر توقف أمام اختلافات بين الآيات السابقة ، وهي التبادل بين حرفي العطف ، الفاء في قوله في الأعراف : { فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ } والواو

---

[1] التحرير والتنوير: ٦٨/١.

[2] المرجع السابق: ١٩/ ١٢٦.

في الشعراء في قوله : { وَجَاءَ السَّحَرَةُ } ، وحذف همزة الاستفهام وحذف {إذاً } في سورة الأعراف ، وعزا الاختلافات إلى التفنن .

ولم يتناول علماء المتشابه من هذه الاختلافات إلا الاختلاف الأخير ، واتفقوا إلى أن داعيه مراعاة ما بني عليه السياق في الأعراف من الإيجاز ، وما بني عليه السياق في الشعراء من الإطناب يقول ابن الزبير : " " إذاً " تقع جوابًا وجزاء والمعنى فى السورتين مقصود به الجزاء فوقع الاكتفاء فى الأعراف بقوله تعالى: (نَعَمْ) والمعنى: نعم لكم ما أردتم من الأجر وزيادة التقريب والحظوة، ولا شك أن المعنى: إن غلبتم فلكم ذلك فالمعنى على ذلك ، ثم ورد فى سورة الشعراء مفصحًا بالأداة المحرزة له وهى (إذاً) ليناسب بزيادتها ما مضت عليه – أي سورة الشعراء – من الاستيفاء والإطناب كما تقدم ، وناسب سقوطها فى الأعراف مقصود الإيجاز فى هذه القصة" [1] .

خامساً : ترتيب النزول.

اعتمد الطاهر على هذا الأساس في توجيه المتشابه في موضع واحد ، وهو في قوله تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة :١٩٣]، وقوله تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال : ٣٩].

يقول تعقيبًا على آية الأنفال :" والتعريف في الدين للجنس ، وتقدم الكلام على نظيرها في سورة البقرة ، إلا أن هذه الآية زيد فيها اسم التأكيد وهو" كُلُّهُ " ، وذلك لأن هذه الآية أسبق نزولًا من آية البقرة فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه للَّه تعالى ، لئلا يتوهم الاقتِناع بإسلام غالب المشركين ، فلما تقرر معنى العموم وصار نصًا من هذه الآية

[1] ملاك التأويل ١/ ٢١٧ وما بعدها، وينظر : درة التنزيل ٢/ ٦٦١، والبرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٢٧ .

عدل عن إعادته في آية البقرة تطلبًا للإيجاز".[1]

فالطاهر راعى اختلاف حال المسلمين في النظر إلى فكرة انتشار الإسلام ، ففي آية الأنفال التي هي أسبق نزولًا يحتاج النظم في قوله تعالى " وَيَكُونَ الدِّينُ " لمزيد تقرير لأن الإسلام في بدء انتشاره، فكان التأكيد الشمولي " كُلُّهُ لِلَّهِ " ، وأما آية البقرة فنفوس المسلمين كانت أكثر قبولًا لانتشار الإسلام ، فلا يحتاج فيها إلى تأكيد الشمول ، ولذلك كان إتيانه مما يتنزه عنها النظم القرآني لكونه بلا فائدة.

ويتعارض هذا الرأي للطاهر مع ما ذهب إليه ابن جماعة ، حيث قال: " قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، وقال تعالى في الأنفال: (وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) ؟ جوابه: أن آية البقرة نزلت في أول سنة من الهجرة في سرية عبد الله بن جحش لعمرو بن الحضرمي وصناديد مكة أحياء ، ولم يكن للمسلمين رجاء في إسلامهم تلك الحال ، وآية الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، وقتل صناديدهم ، فكان المسلمون بعد ذلك أرجى لإسلام أهل مكة عامة وغيرهم ، فأكد سبحانه وتعالى رجاءهم ذلك بقوله تعالى: (وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) أي: لا يعبد سواه"[2].

فالتعارض بين الطاهر وابن جماعة في ترتيب النزول الذي رتب عليه كل منهما سر بياني في توجيه المتشابه.

أما الإسكافي فهو يرى أنه جاء في الأنفال : ((وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)) ولم يأت في البقرة : ((كُلُّهُ)) ، لأن آية الأنفال في الكفار عمومًا ، وآية البقرة فِي مشركي مكة ، فناسب التعميم الأنفال ، ولم يحتج في البقرة إليه.[3].

---

[1] التحرير والتنوير ٩/ ٣٤٧.

[2] كشف المعاني فى المتشابه من المثاني صـ : ١١٣ -١١٤.

[3] درة التنزيل ١/ ٣٣١.

وما ذهب إليه الإسكافي أكثر قبولاً،ولذلك وافقه في ذلك كثير من العلماء كالكرماني والغرناطي وأبي حيان والنيسابوري[1].

سادساً : مراعاة النظير في النسج.

وهو أحد الأسس اللفظية التي ذهب إليه الطاهر، وقد راعاه في موضع واحد ، وذلك في توجيه اختلاف حرف العطف في سورة الأعراف : { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)} وسورة النمل : {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) }.

فهو يرى أن الفاء والواو متماثلان دلالة في الموضعين يقول في سورة النمل : " فأما موقع الفاء هنا فهو لتعقيب الجملة المعطوفة بِالفاء على التي قبلها تعقيب جزء القصة على أوله فلا تفيد إلا تعقيب الإخبار، وهي في ذلك مساوية للواو"[2].

ويعزو الاختلاف إلى مراعاة النظير في النسج ، وهو الوارد في قصة ثمود الواردة قبل قصة لوط في سورة النمل ، يقول الطاهر : " أوثر حرف التعقيب في هذه الآية لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى : (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ)[النمل: ٤٥] ، فالاختلاف بين هذه الآية وآية الأعراف تفنن في الحكاية، ومراعاة للنظير في النسج "[3] .

وهذا التوجيه لم يذهب إليه أحد من علماء المتشابه ولا المفسرين ، وهو يرتكز على مراعاة التناسق اللفظي بين أجزاء النظم القرآني، أما الخطيب

---

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ٨٤ ، ملاك التأويل ١/ ٦٣-٦٤، البحر المحيط ٢/ ٢٤٧ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري- تحقيق : زكريا عميرات- دار الكتب العلمية- بيروت-الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ٣ / ٣٩٨.

[2] التحرير والتنوير : ٢٠ / ٥.

[3] نفس المرجع السابق والصفحة.

الإسكافي فيبني التوجيه على مراعاة البناء التركيبي وتناسب النظم من جهة الدلالة ، فهو ينظر إلى أنه قد عطف بالواو دون الفاء في آية الأعراف لأنه قد وقع قبلها قوله : (مُسْرِفُون) في قوله تعالى : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُون) الأعراف :٨١ وهو اسم ، ولا يناسب الاسم التعقيب المفاد من الفاء ، إذ الأصل في الفاء أن توجب ما بعدها لوقوع ما قبلها وهو الفعل ، وهو ما تحقق في آية النمل فقد وقع قبل الفاء فعل وهو (تَجْهَلُونَ) في قوله : {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) } [1].

وهذا الرأي ذهب إليه الكرماني والغرناطي والأنصاري [2] ، وهو يعتمد على المناسبة المعنوية ، أما ما ذهب إليه الطاهر فهو يمثل التوجيه اللفظي والتناسق التعبيري ، ولا تعارض بين الوجهين فكل يدفع إلى اختلاف النظم.

سابعاً : وضوح الدلالة وأمن اللبس.

وجاء هذا الأساس في موضع واحد عند الطاهر وهو توجيه المتشابه في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) } [هود: ٢٨]، وقوله تعالى على لسان صالح عليه السلام : {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)} [هود: ٦٣].

وقد بين الطاهر موجب تقديم (مِنْهُ) على رحمة في [هود : ٦٣] ، وَتَأْخِيرِ [مِنْ عِنْدِهِ]في [هود: ٢٨] بقوله : " لأن ذلك مع ما فيه من التفنن بِعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل ، هو أيضا أسعد بالبيان

---

[1] درة التنزيل وغرة التأويل:٢/ ٦٣٤، وما بعدها .

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٩٣-١٩٤، ملاك التأويل: ١/ ٥٥٣- وما بعدها ، فتح الرحمن : ١٤٥ .

في وضوح الدلالة ودفع اللبس" .

وأوضح ذلك بقوله : " فلما كان مجرور (مِنْ) الابتدائية ظرفًا وهو (عِنْدَ) كان صريحًا في وصف الرحمة بِصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها ، ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل آتاني ليكون تقيِيد الإيتاء بِأنه من الله مشير إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى ، إذ لولا ذلك لكان كونه من اللَّه تحصيلًا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه ، فتعين أن يكون المراد إيتاءً خاصًا ، ولو أوقع منه عقب رحمة لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة ، أي عن أن يقال : وآتاني رحمته ، كقوله: ((وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا)) [مريم: ٢١] أي ورحمتنا لهم ، أي لنعظهم ونرحمهم " [1].

فكلا المقامين عند الطاهر يحتاجان إلى الاعتناء الرباني بالرحمة وبمن أوتيها ، ودل على الاعتناء بها في الآية الأولى استخدامه للظرف (عند) ، أما في الآية الأخرى عن طريق تقديم الجار والمجرور (منه) على رحمة ، ولولا التقديم عنده لفاتت تلك الدلالة التي تدفع توهم غير المقصود ، ويكون القيد تحصيل حاصل.

فالمعنى متفق في التعبيرين عند الطاهر ، ولم يكن الطاهر وحده الذي يذهب إلى الاتفاق في المعنى بين التعبيرين ، فالخطيب الإسكافي يذهب إلى ذلك أيضًا ، وتابعه الكرماني والفيروزآبادي ؛ ولذلك اعتمدوا في توجيه المتشابه على التوجيه اللفظي ، وهو ما ذهب إليه أيضًا الطاهر الذي ذكر أن سر الاختلاف هو التفنن في عرض المعنى الواحد ، مع اختلاف بينهم في أن الطاهر لم يكتف بالتوجيه اللفظي ، واختلاف بينهم في جوهر التوجيه اللفظي

[1] التحرير والتنوير ١١١/١٢ وما بعدها.

أيضا. [1] .

ويلخص الكرماني توجيه الخطيب الإسكافي فيقول : " قال الخطيب لما وقع { وآتاني رَحْمَة } في جواب كلام فيه ثلاثة أفعال كلها متعد إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجار ومجرور وهو قوله: { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا} { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ } { بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } أجرى الجواب مجراه ، فجمع بين المفعولين من غير حائل ، وأما الثاني فقد وقع في جواب كلام قد حيل بينهما بجار ومجرور ، وهو قوله : { قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا } لأن خبر كان بِمنزلة المفعول، كذلك حيل في الجواب بين المفعولين بالجار والمجرور " [2].

والمعتبر بيانيًا أن بين التعبيرين اختلافًا ، وهو ما ذهب إليه الغرناطي وعزاه إلى السياق ودواعيه ، إذ يرى أن قوم صالح عليه السلام بالغوا في إساءة الجواب حين قالوا : (قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا) (هود: ٦٢)، أي قد كنت مرجواً أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا ، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم ، فلما بالغوا في قبح الجواب بالغ عليه السلام في رد مقالهم ، فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى ، ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب ، لأن أقصى المفهوم من قولهم: (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا)، إلحاقه بهم ومماثلته إياهم، فأتى بالمجرور مؤخرًا في محله على ما يجب [3] .

ثامناً : مراعاة الفواصل .

مراعاة الفواصل من مقاصد النظم البليغ عند الطاهر ، ولذا تراه كثيرًا ما يعلل به بعض الألوان البلاغية ، إلا أنه لم يستخدمه في توجيه المتشابه

---

[1] درة التنزيل ٢/ ٧٥٦، وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٤٤ ، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٢٤٩ .

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٤٤ ، وينظر : درة التنزيل ٢/٧٥٦-٧٥٨ .

[3] ملاك التأويل : ٢/ ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

إلا في موضع واحد، وذلك في تعليقه على قوله تعالى : { وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)} [الأعراف].

إذ يقول : " ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة ، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المَحْكِيِّ، إذ وقع في الآية الأخرى (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَهارُونَ) [الشعراء: ٤٧، ٤٨] " [١] ، وهذا القول ذهب إليه علماء المتشابه [٢] وكثير من المفسرين .[٣]

والطاهر يتابع هؤلاء العلماء في توجيه آخر ، يعتمد على تعدد وقوع الفعل (القول)، فيقدم في كل مرة باعتبار ، يقول : "ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتبارًا بكبر سنه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارًا بفضله على هارون بِالرسالة وكلام اللَّه تعالى " [٤].

---

[١] التحرير والتنوير : ١٦ / ٢٦٣.

[٢] ينظر : درة التنزيل ٦٦٤/٢ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ١/ ١٢٨-١٢٩ ، وملاك التأويل ٢١٨/١ ، وكشف المعاني صـ :١٨٧ ، وفتح الرحمن صـ : ٣٦٥.

[٣] ينظر : الدر المصون للسمين الحلبي ، تحقيق : د. أحمد محمد الخراط – دار القلم دمشق -٢١٩/٥ ، والبحر المحيط ٥/ ١٤٠ ، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي – تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م – ٩/ ٢٦٥.

[٤] التحرير والتنوير : ١٦ / ٢٦٣ ، وينظر : درة التنزيل ٦٦٤/٢ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن: ١/ ١٢٨-١٢٩ ، وملاك التأويل: ٢١٨/١ ، وكشف المعاني صـ :١٨٧ ، وفتح الرحمن: ٣٦٥/١ ، والدر المصون: ٢١٩/٥ ، والبحر المحيط : ٥/ ١٤٠ ، واللباب في علوم الكتاب: ٩/ ٢٦٥ .

تاسعاً : زيادة الفائدة .

استخدم الطاهر هذا الأساس في موضع واحد في تعليقه على التعبير بـ [كَذَّبُوا] في قوله تعالى في سورة الأنفال : {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) } بخلاف التعبير بـ [كَفَرُوا] فيما قبلها من سورة الأنفال ، وهو قوله تعالى : {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)}.

يقول الطاهر : " وخولف بين الجملتين تفننًا في الأسلوب، وزيادةً للفائدة، بِذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك"[1].

والطاهر يتابع في توجيهه الغرناطي ، ولكن الغرناطي لا يقتصر على زيادة الفائدة، بل يذكر علة أخري هي المنع من الثقل ، يقول في التعليق على الآية (٥٤) : " ثم لما تلتها الآية الأخرى من غير طول بينهما وقع التعبير فيها بالتكذيب ، فقال : " كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ " وعدل عن لفظ (كَفَرُوا) لثقل التكرر مع القرب وليحصل وسمهم بالكفر والتكذيب"[2].

المبحث الثاني

الأسرار البلاغية في المتشابه من الحروف

للطاهر بن عاشور وقفات دقيقة مع العديد من الحروف التي لها اتصال بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، وهي تساعد على إظهار ألوان من بلاغة القرآن وإعجازه ، ويدل على صعوبة وأهمية دراسة بلاغة الحروف في القرآن الكريم ، وما لها من أثر بياني قول الشيخ عضيمة : " أما المشقة العظيمة فهي في وجوه اختلاف مواقع هذه الحروف من جمل ، ثم

---

[1] التحرير والتنوير : ١٠/ ٤٦.

[2] ملاك التأويل ١/ ٧٨.

اختلاف معانيها باختلاف مواقعها ، ثم ملاحظة الفروق الدقيقة التي يقتضيها هذا الاختلاف في دلالته المؤثرة في معاني الآيات ، وهذا وحده أساس علم جليل من علوم القرآن الكريم ".[1]

وسنتناول جهد الطاهر في هذا الموضوع من خلال إبراز توجيهاته لأمرين هما : إبدال حرف بغيره ، وحذف الحرف وذكره .

أولًا : إبدال حرف بغيره .

- وأكثر ما تناوله من هذا النوع الاختلاف في العطف بالواو والفاء ، وذلك كتوجيهه لقوله تعالى في سورة البقرة: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) } ، وقوله تعالى في سورة الأعراف : { وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا (١٩) } .

فقد ورد الأمر بالأكل معطوفاً في سورة البقرة بالواو ، وفي سورة الأعراف معطوفاً بالفاء.

والطاهر قد بين في تفسيره لسورة الأعراف دلالة كلا الحرفين في كلتا الآيتين ، ومناسبة كل واحدة منهما لسياقها ، يقول مبيناً دلالة الفاء في الأعراف ومناسبتها لسياقها : " الذي وقع في سورة البقرة [٣٥] (وَكُلا) بِالواو وهنا بالفاء ، والعطف بالواو أعم ، فالآية هنا أفادت أن اللَّه تعالى أذن آدم بِأن يتمتع بثمار الجنة عقب أمره بِسكنى الجنة، وتلك مِنَّة عاجلة تؤذن بِتمام الإكرام ، ولما كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة ، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس ، الذي تكبر وفضل نفسه عليه، كان الحال مقتضيًا إعلام السامعين به في المقام الذي حكي فيه الغضب على إبليس وطرده"[2].

فإبليس في سياق سورة الأعرف تكبر كما دل على ذلك قوله تعالى : {

---

[1] مقدمة دراسات لأسلوب القرآن الكريم- القسم الأول—الجزء الأول.

[2] التحرير والتنوير ٨ /٥٤ .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) } [الأعراف : ١٢ – ١٤].

فالمناسب لسياق الغضب على إبليس والأدل على تنغيص إبليس الذي تكبر هو أن يكون تمتع آدم بثمار الجنة عاجلاً كما هو دلالة الفاء ؛ حتى يكون ذلك أدل على تمام الإكرام .

ويقول مبيناً دلالة الواو في البقرة ومناسبتها لسياقها : " وأما آية البقرة فإنّما أفادت السامعين أنّ الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنّة والتمتع بثمارها ؛ لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته ، والتحذير من كيد الشيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم "[1] وهذا مقام لا يحتاج إلا إلى الواو التي تفيد مطلق الجمع بين المنة بسكنى الجنة والتمتع بثمارها .

ويلاحظ أن الطاهر قد جاء بتوجيه مختلف عن سابقيه من علماء المتشابه ، فالخطيب الإسكافي له أصل مقرر عنده في موضع العطف بالواو أو الفاء يقول : " والأصل في ذلك أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء ، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو "[2].

ويطبق الأصل السابق على قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } [البقرة ٥٨] فيقول : " فعطف "كُلُوا" على " ادْخُلُوا " بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها ، فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها ، فالدخول موصل إلى الأكل ، والأكل متعلق وجوده

[1] نفس المرجع السابق والصفحة .

[2] درة التنزيل ٢٢٢/١ .

بوجوده "[1].

ويبرهن على هذا الأصل معلقاً على قوله تعالى: { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّة } [الأعراف ١٦١]، فيقول : " فعطف" كُلُوا " على قوله: "اسْكُنُوا" بالواو دون الفاء ؛ لأن "اسكنوا " من السكنى ، وهي المقام مع طول لبث ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ؛ لأن من يدخل بستاناً قد يدخل منه وإن كان مجتازاً ، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء ، وعلى هذا قوله تعالى في الآية التي بدأت بذكرها : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) "[2]

ويدفع ما يوهم تعارضه مع الأصل السابق فيقول : " وبقى أن نبين المراد بالفاء في قوله تعالى : (فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا .....) من سورة الأعراف[١٩] مع عطفه على قوله : (اسْكُنْ) وهو أن "اسكن" يقال لمن دخل مكاناً ، فيراد به : الزم المكان الذي دخلته ولا تنقل منه ، ويقال أيضاً لمن لم يدخله : اسكن هذا المكان يعني ادخله واسكنه ، كما تقول لمن تعرض عليه داراً ينزلها سكنى ، فتقول : اسكن هذه الدار فاصنع فيها ما شئت من الصناعات ، معناه ادخلها ساكنًا لها فافعل فيها كذا وكذا "[3].

وقد دلل على أن المناسب هو حمل (اسْكُنْ) في هذه الآية على مجرد الدخول ، وأن ذلك الأمر كان قبل الدخول بقوله :" فالحمل على هذا المعنى في هذه الآية أولى ؛ لأنه – عز من قائل وجل– قال لإبليس : (اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا) [الأعراف : ١٨] ، فكأنه قال لآدم : اسكن أنت وزوجك الجنة ، أي : ادخل ، فيقال : اسكن يعني ادخل ساكناً ليوافق الدخول الخروج

---

[1] المرجع السابق ١/٢٢٣.

[2] نفس المرجع السابق والصفحة .

[3] درة التنزيل ١/ ٢٢٣-٢٢٤.

، ويكون أحد الخطابين لهما قبل الدخول ، والآخر بعده "[1].

وأما الكرماني فقد جاء توجيهه قريبًا مما ذكره الإسكافي ، فقد رأى السر في اختلاف العاطف هو اختلاف دلالة قوله :" اسْكُنْ " في كلتا الآيتين ، وما تستدعيه كل دلالة من زمن لحدوثها يختلف عن زمن الأخرى يقول : " (اسْكُنْ) في الآيتين ليس بأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة ، وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة ، وذلك يستدعي زمانًا ممتدًا فلم يصلح إلا بالواو ؛ لأن المعنى : اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة ؛ لأن الفاء للتعقيب والترتيب ، والذي في الأعراف من السكنى التي معناها : اتخاذ الموضع سكناً ؛ لأن الله – تعالى– أخرج إبليس من الجنة بقوله : (اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)[١٨] ، وخاطب آدم فقال: (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ) [١٩] أي اتخذاها لأنفسكما مسكناً (فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) فكانت الفاء أولى ؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه ، بل يقع الأكل عقيبه"[2] .

وقد وافق ابن جماعة والأنصاري الكرماني في تعليله [3]

أما الغرناطي فقد نظر إلى السياق المتقدم في كلتا الآيتين ، وبنى عليه توجيهه ، فقوله تعالى في سورة البقرة: (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) ورد لمجرد إخبار الرسول ﷺ بما ورد في قصة آدم عليه السلام من غير إرادة ترتيب زماني أو مكاني أو تحديد غاية فناسبه الواو.

أما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله على عباده ابتداء بتسخير الأرض لهم ، وما يتبع ذلك من الخلق والتصوير ، ثم أمر الملائكة بالسجود

---

[1] درة التنزيل ١/٢٢٤.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ :٧١ .

[3] كشف المعاني صـ : ٩٢ –٩٣، فتح الرحمن صـ :٢٦ .

لآدم ، ثم إخراج إبليس ، ثم أمر آدم بالهبوط ، ثم تأنيسه وتوصيته لذريته، فناسب هذا التفصيل والتعداد للنعم العطف بالفاء المقتضية للترتيب[1].

فحاصل المسألة أن المتشابه في الآيتين تم تناوله من ناحتين :

الناحية الأولى : دراسة تناسب العطف بالفاء والواو مع السياق ، وهذا المنحى مثله الغرناطي ، وابن عاشور ، مع اختلاف في التوجيه .

الناحية الأخري : دراسة تناسب المقصود من الأكل في كلتا الآيتين مع العطف بالفاء والواو ، وهذا المنحى مثله الإسكافي والكرماني وابن جماعة.

ولاشك أن ما ذُكر من أسرار لتوجيه المتشابه صالح للتوجيه به سواء من ابن عاشور أو غيره من العلماء ، ويحسب للطاهر أن ما ذكره لم ينقله عن غيره من العلماء ، وإنما كان من اجتهاده .

ومن توجيهه الاختلاف في العطف بالواو والفاء ما جاء في تفسيره لسورة هود ، فقد جاء العطف بالواو في قصتي هود وشعيب في قوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا } [هود ٥٨، ٩٤] ، أما في قصتي صالح وشعيب فكان العطف بالفاء في قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا }[هود :٦٦ ، ٨٢].

وقد علل الطاهر العطف بالفاء بأن السياق فيه تعيين لموعد العذاب ، فهو يقتضي ترقب العذاب وسرعة حلوله فيناسبه العطف بالفاء ، أما الموضعان اللذان ورد فيهما العطف بالواو فهو يرى أن الوعيد فيهما مجمل .

يقول معلقًا على الآية (٩٥) من سورة هود : " عطف (لَمَّا جاءَ أَمْرُنا) هنا وفي قوله في قصةِ عادٍ: (وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً) [هود: ٥٨] بِالواو فيهما وعطف نظيراهما في قصة ثمود(فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً) [هود:٦٦] وَفِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ(فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها)

[1] ملاك التأويل ١/ ٢٨-٢٩ .

[هود: ٨٢] لأن قصتي ثمود وقوم لوطٍ كان فيهما تعيين أجل العذاب الذي توَعد به النبيان قومهما ، ففي قصةِ ثمود (فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) [هود: ٦٥] ، وفي قصة قوم لوط(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) [هود: ٨١] فكان المقام مقتضيًا ترقب السامع لما حل بهم عند ذلك الموعد ، فكان الموقع للفاء لتفريع ما حل بهم على الوعيد به ، وليس في قصة عاد وقصة مَدْيَنَ تعيين لموعد العذاب، ولكن الوعيد فيهما مجمل من قوله: (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ) [هود: ٥٧] ، وقوله: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) [هود: ٩٣] .[١]

وما ذكره الطاهر هو معنى ما أشار إليه الخطيب الإسكافي ، وتابعه فيه الكرماني والغرناطي وابن جماعة ، يقول الإسكافي معلقًا على قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) هود: ٥٨ " فلم يتقدم تخويف بقرب ما أوعدوا به ليدل على اتصال الثاني بالأول واقتضاء العطف بالفاء مكان العطف بالواو ، وكان الموضع موضع الواو ، لأن المراد الجمع بين الخبرين من دون ذكر ما يقلل الزمان بين الفعلين ، وكذلك قصة شعيب لم يدل فيها على أنهم أوعدوا بعذاب قد أظلهم وقرب منهم ، وإنما أخبر عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لهم : (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) هود: ٩٣ فلم يتوعدهم بالاقتراب ، بل دعاهم إلى الارتقاب ، فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى : (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضي اتصال الثاني به ، وليس كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء، وهما قوله تعالى في قصة صالح: { فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا } [هود: ٦٥-٦٦] وقوله في

[١] التحرير والتنوير ١٢/ ١٥٣-١٥٤.

قصة لوط: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) [هود ٨١-٨٢] فكان ذلك بعقبه غير متراخ فاقتضى الفاء التي تدل على التعقيب واتصال ما بعدها بما قبلها من غير مهلة بينهم ".[١]

وبالنظر إلى ما ذكره الإسكافي يلاحظ أنه أكثر عناية من الطاهر بدراسة عناصر السياق التي تدعو إلى خروج ما بعد الواو عما يقتضي اتصاله بما قبله على وجه التعقيب في قصتي هود وشعيب عليهما السلام ، ولذا دار حوله علماء المتشابه من بعده كما ذكرت سلفًا .

أما دراسة عناصر السياق التي تدعو إلى اتصال ما بعد الفاء بما قبلها من غير مهلة بينهما في قصتي صالح ولوط عليهما السلام، فلم يخرج كلام الطاهر عما ذكره الإسكافي .

- **حروف الجر**.

كذلك تناول الطاهر آيات متشابهة ، ليس بينها اختلاف إلا في نوع حرف الجر ، كتوجيهه الاختلاف بين تعدية الفعل أنزل بـ (إلى) في قوله تعالى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : ١٣٦]

وتعديته بـ (على) في قوله تعالى : { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [آل عمران : ٨٤]

---

[١] درة التنزيل: ٢/٧٩١-٧٩٢ ، وينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن : ٢٢٣ ، وملاك التأويل : ٢/ ٢٥٧- ٢٥٨ وكشف المعاني صـ : ٢١٢-٢١٤ .

وقد بنى الطاهر توجيهه للمتشابه على أن فعل الإنزال يأتي بكلا الاعتبارين التعدي بـ (على) أو(إلى) يقول الطاهر : " وعَدَّى فِعْلَ (أُنْزِلَ) هنا – يقصد سورة آل عمران– بِحرف (على) بِاعتبار أن الإنزال يقتضي علوًّا فوصول الشيءِ المنزل وصول استعلاءٍ ، وَعُدِّيَ في آية سورة البقرة بِحرف (إلى) بِاعتبار أن الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدى بِحرف (إلى) "[1]. وممن رأى هذا القول الزمخشري والرازي والبيضاوي والألوسي [2] .

وقد ذهب الإسكافي إلى أن الإنزال بـ(على) خاص بالرسل لأنه ينزل عليهم من فوق ، أما الإنزال بـ (إلى) فهو خاص بالأمة لأنه منته إليها ، وعلى هذا جاءت آيتا البقرة وآل عمران ، فآية البقرة اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى) ... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم، فلما كان (قُولُوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على) .

ولما كانت آية سورة آل عمران قد صدرت بما هو خطاب للنبيﷺ، وهو قوله: {قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا} [آل عمران: ٨٤] كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه.[3] وتابعه في ذلك الكرماني وابن

---

[1] التحرير والتنوير ٣٠٢/٣.

[2] الكشاف ٣٨١/١ ، مفاتيح الغيب ٢٨١/٨، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي – تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي– دار إحياء التراث العربي– الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ، صـ:٦٠ ، تفسير القرآن العظيم للألوسي – دار إحياء التراث العربي – ٢١٥/٣.

[3] درة التنزيل ٢٩٨/١ –٢٩٩.

الزبير الغرناطي و الفيروزآبادي والأنصاري [1].

ومن بيانه لسر الاختلاف بين حروف الجر تعليقه على قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)} [لقمان: ٢٩].

وقوله تعالى :{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ } [فاطر: ١٣] .

يقول في التعليق على الآية الأخيرة : " وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان، سوى أن هذه الآية جاء فيها ((كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ)) فعدي فعل يجري بِاللام ، وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل يجري بِحرف (إلى) ، فقيل اللام تكون بِمعنى (إلى) في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتينِ تفنن في النظم ، وهذا أباه الزمخشريّ في سورة لقمان ورده أغلظ رد فقال: ليس ذلك من تعاقب الحرفين ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ؛ لأن قولك: يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه، وقوله: يجري لأجل تريد لإدراك أجل ، وجعل اللام للاختصاص أي ويجري لأجل أجل، أي لبلوغه واستيفائه، والانتهاء والاختصاص كل منهما ملائم للغرض، أي فمآل المعنيين واحد وإن كان طريقه مختلفًا، يعني فلا يعد الانتهاء معنى للام كما فعل ابن مالك وابن هشام، وهو وإن كان يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف، وهو مما نميل إليه إلا أننا لا نستطِيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن ٧٩/١ ، وملاك التأويل ٥٢/١-٥٣ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٨/١ ، وفتح الرحمن صـ :٤٠.

لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساوية للحقِيقة، اللهم إلا أن يكون الزمخشري يريد أن الأجل هنا هو أجل كل إنسان أيْ عمره، وأن الأجل في سورة لقمان هو أجل بقاء هذا العالم"[1].

و يلاحظ في نص الطاهر السابق ما يلي :

- القائل باتحاد معنى اللام و(إلى) يعزو اختلاف النظم إلى التفنن ، وهو قول ضعيف عنده كما يدل روايته بصيغة التضعيف.
- الزمخشري يشتد في إنكار تعاقب الحرفين ، ويثبت الفارق بينهما.
- يذهب الطاهر إلى كثرة ورود اللام بمعنى الانتهاء كثرة جعلتها مساوية للحقيقة .
- الطاهر يذهب إلى أنه لو سلم بوجود الفارق بين الحرفين كما ذهب إليه الزمخشرى يكون الداعي لاختلاف النظم هو اختلاف المراد من كلمة الأجل في الآيتين ، فيتبعه تغاير حرف الجر .

وبيان ذلك أن الأجل في سورة لقمان هو أجل بقاء العالم فيناسبه (إلى) التي للانتهاء ، أي كل يجري منتهيًا إلى أجل انتهاء العالم ، وأما الأجل في سورة فاطر فهو أجل كل إنسان فيناسبه اللام التي للاختصاص ، أي كل إنسان يجري لأجله المخصوص به.

وهذا القول ذهب إليه الخطيب الإسكافي في توجيه الاختلاف ، ولكن دعمه ببيان السر في اختلاف المقصود من كلمة الأجل ، وهو السياق الواردة فيه يقول في آية لقمان : " الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها: (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...)، وبعدها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ...) ، فكان المعنى: كلّ يجري إلى ذلك الوقت، وهو

[1] التحرير والتنوير : ٢٢/ ٢٨١ ، وينظر الكشاف ٥٠٢/٣ .

الوقت الذي تكوّر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى " [1] .

ويقول في آية سورة فاطر : " هو في ذكر النعم التي ابتدأ بها في البر والبحر ، إذ يقول: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ) إلى قوله: (.. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها "[2].

أما الغرناطي فيبني توجيه المتشابه على مراعاة الإطناب للإطناب والإيجاز للإيجاز يقول : " آية لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [لقمان :٢٩] ثم قال: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) [لقمان :٢٩] فعطف بواو النسق المقتضية الجمع، فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله: (أَلَمْ تَرَ)، فطال الكلام بحسب ما اقتضاه مقصوده، فناسب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة وهو (إلى)، فانجر الأجل بها ، ولما بنيت آية فاطر على إيجاز ليس في آية لقمان ناسبه الجر باللام اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب، وورد كل على ما يناسب أتم مناسبة. [3]

ثانياً : حذف الحرف وذكره.

للذكر والحذف فوائد في النظم القرآني ، لاسيما في الآيات المتشابهة ، وهي دلائل شاخصة على دقائق بيانه وأمارات على عجيب إعجاز تراكيبه.

وقد كثرت إشارات الطاهر إلى الاختلافات بين الآيات المتشابهة فيما

---

[1] درة التنزيل ٣/ ١٠٥٧.

[2] درة التنزيل ٣/ ١٠٥٧.

[3] ملاك التأويل ٢/ ٤٠٣.

يتعلق بذكر الحروف وحذفها ، ومن ذلك توجيهه الاختلاف بين قوله تعالى في آل عمران : {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) } .

وقوله تعالى في فاطر: { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦) }.

وقد خولف بين الآيتين إذ قرن كل من «الزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» بالباء في آية فاطر ، وجردا منها في آية آل عمران.

وابن عاشور يوجه هذا الاختلاف بأن " آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار ، فقيل في التفرد ببهتانهم : قد كذبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات، مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم، فترك إعادة الباء إشارة إلى أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة.

ولما كان السياق في سورة فاطر لتسلية الرسولﷺ ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل فمنهم الذين أتوا بآيات ، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط ، ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها ، أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيليا، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير ، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل"[1].

[1] التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٢ .

ولم يذكر أحد من العلماء هذا التوجيه الذي نص عليه الطاهر، وهو يقوم على دلالة ذكر الباء ودلالة حذفها ، وتناسب دلالة كل منهما مع سياقها .

ولا أتفق مع الطاهر فيما بنى عليه توجيهه ، فليس ترك إعادة الباء يشعر أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة (البينات– الزبر– الكتاب المنير) ، ولا ذكر الباء يشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل .

وإذا سلمنا بهذه الدلالات لترك الباء وذكرها ، فليس كما يذهب الطاهر دلالة ترك الباء على أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة (البينات–الزبر– الكتاب المنير) أحق بسياق الرد على زعم اليهود ألا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار ، دون سياق تسلية الرسول ﷺ بذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أصناف معجزاتهم .

وكذلك ليس كما يذهب الطاهر دلالة ذكر الباء على توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل أحق بسياق تسلية الرسول ﷺ بذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أصناف معجزات الرسل ، دون سياق الرد على زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار .

ويرى الإسكافي أن الزبر والكتاب المنير في سورة آل عمران وقعا في كلام بني على الاختصار ، وكان أول ذلك قوله: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ) فوضع الماضي الذي هو أخف موضع المستقبل الذي هو أثقل ، ثم إن الفعل الذي جاء في جواب الشرط لم يسم فاعله ، فكان الاختيار أن يجعل آخر الكلام كأوله في الاكتفاء بما قل عما كثر منه مع وضوح المعنى ، والآية التي في سورة فاطر صدرت بما يخالف ذلك في الموضعين ، لأن الشرط جاء فيها على الأصل بلفظ المستقبل، وهو: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ) وجاء الجزاء أيضا مبنيًا للفاعل، ولم يحذف منه ما حذف من الأول ، فلما قصد توفيه اللفظ حقه أتبع آخر الكلام أوله في توفية كل معمول في عامله ، وهي حروف الجر التي استوفتها

المجرورات ، فلذلك اختلفت الآيتان[1] ووافقه الكرماني[2].

ولعل أقرب الآراء في توجيه المتشابه ما رآه الدكتور المطعني – رحمه الله– من أن القوم في مكة يختلف حالهم عن القوم في المدينة من حيث الاستجابة إلى الدعوة والإسراع إلى الإيمان ، فأهل مكة أهل عناد وتحد، وأهل المدينة أهل إسلام وطاعه ، فالمقام في مكة كان يقتضي التأكيد في المعاني لتقريرها ورسوخها لتتناسب مع حالة الإنكار التي كانوا عليها ، وعلى هذا جاء التعبير في " فاطر " المكية؛ لأن تكرار حرف الجر في المواضع الثلاثة يشعر بتكرار التعلق ، فكأنه قال: جاءوا بالبينات ، وجاءوا بالزبر ، وجاءوا بالكتاب المنير، وخلا التعبير المدني في آل عمران من هذا التكرار لعدم الحاجة إليه لإسلام أهل المدينة وطاعتهم.[3]

ومن توجيهه الاختلافات بين الآيات المتشابهة فيما يتعلق بذكر الحروف وحذفها توجيه الاختلاف بين قوله تعالى : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [هود : ٧٧] ، وقوله تعالى : { وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لَا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ } [العنكبوت : ٣٣].

إذ يقول معلقًا على فائدة زيادة (أن)في سورة العنكبوت : " وأن حرف مزيد للتوكيد وأكثر ما يزاد بعد (لما)، وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد (لما) ، فهي هنا لتحقيق الربط بين مجِيء الرسل ومساءة لوط بِهم ".

---

[1] درة التنزيل ١/٤٠١-٤٠٢.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ :٣٨.

[3] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور / عبد العظيم المطعني– الناشر: مكتبة وهبة– الطبعة: الأولى– ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م–٢ /١٨ وما بعدها.

وأما المقصود بالتحقيق هنا وفائدته فيقول فيه الطاهر : " ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران والتوقيت بين الشرط والجزاء تنبيهًا على أن الإساءة عقبت مجيئهم وفاجأته من غير رَيْثٍ ، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم ، فلم يكن لوط عالمًا بأنهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة رجال ، فأريد هنا التنبيه على أن ما حدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية ، وقبل أن يقولوا لا تخف ولا تحزن ".

ويرى الطاهر أنه لم تقع أن المؤكدة في آية سورة هود وذلك " لأن في تلك السورة تفصيلًا لسبب إساءته وضيق ذرعه ، فكان ذلك مغنيًا عن التنبيه عليه في هذه الآية ، فكان التأكيد هنا ضربًا من الإطنابِ "[1] .

وما ذكره الطاهر صحيح وهو لفتة طيبة وجيدة في إدراك بلاغة القرآن وما يحتاج إليه كل سياق من خصائص التعبير ، على الرغم من التقارب البين بين السياقين موضع الشاهد.

والطاهر لم يسبقه أحد إلى هذه اللفتة في توجيه المتشابه ، وقد بناها على ما ذكره الزمخشري في فائدة (أن) في آية العنكبوت إذ يقول : " أَنْ صلة أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان "[2].

أما الخطيب الإسكافي فيعتمد على مراعاة تلاؤم النظم في السياق ، يقول معلقًا على عدم ورود (أن) في سورة هود : " والجواب أن يقال : اقتران " أنْ " بـ (لمّا) في سورة العنكبوت تكملة لمعناها في نفسها ليدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متصلًا به ما يكمّله ويخلّصه لتحقيق أو بطلان ، فالتي في سورة العنكبوت قد اتصل بجوابها، وهو: (سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ

---

[1] التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٤ ، وما بعدها .

[2] تفسير الكشاف ٣/٤٥٣ .

ذَرْعًا) ما يكمله ويخلِّصه لبطلان الروع السابق إليه ، وهي في قوله في سورة هود لم يتصل بجوابها ما يخلّصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند قوله: (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ...) ، فبَعُدَ هذا عن الجواب ولم يتصل به اتصال ما يكون من تمامه "[1].

ومن توجيهه الاختلافات بين الآيات المتشابهة فيما يتعلق بذكر الحروف وحذفها توجيه الاختلاف بين قوله تعالى عن قوم نوح : { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [الأعراف :٦٠] .

وقوله تعالى عن قوم هود :{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود :٢٧].

وقد أوضح سر اختلاف النظم بقوله : " عطف قول الملأ منْ قومه بالفاء على فعل أَرْسَلْنا [هود: ٢٥] للإشارة إلى أنهم بادروه بِالتكذيب والمجادلة الباطلة لما قال لهم : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [هود: ٢٥] إلى آخره ، ولم تقع حكاية ابتداء محاورتهم إياه بِـ (قَالَ) مجردًا عن الفاء كما وقع في الأعراف ، لأن ابتِداء محاورته إياهم هنا لم يقع بِلفظ القول ، فلم يحك جوابهم بطريقة المحاورات بِخلاف آية الأعراف ".[2]

وليس فيما ذكره الطاهر ما يقنع في توجيه اختلاف النظم ، فالوجه الذي ذكره يرد عليه بأنه لم يبين داعي اختصاص جواب المحاورات التي تبدأ بالقول بإسقاط الفاء.

وقد ذكر الطاهر وجهين لمجيء جواب الملأ من قوم نوح معطوفًا بالفاء في قوله تعالى في سورة المؤمنون : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ

---

[1] درة التنزيل ٣/١٠٣٠ .

[2] التحرير والتنوير ١٢/ ٤٥

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) } .

يقول الطاهر : " وقد خولفت في حكاية جواب الملأ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات ، وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } في سورة البقرة [٣٠] ، فعطف هنا جواب الملأ من قومه بالفاء لوجهين : أحدهما: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح ، والثاني: ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر" [١].

وليس هناك ما يقنع فيما ذكره الطاهر في توجيه المتشابه ، إذ لم يبين الداعي الذي دعا النظم الكريم في سورة المؤمنون أن يعتبر الملأ من قوم نوح أعرضوا عنه ، وأقبلوا على قومهم يفندون ما دعاهم إليه ، ولم يراع هذا الاعتبار في سورة الأعراف مع قوم نوح أيضًا.

وكذلك يقال في السبب الثاني الذي ذكره الطاهر: بأنه لم يبين الداعي الذي دعا النظم الكريم في سورة المؤمنون أن يعتبر الملأ من قوم نوح أسرعوا إلى تكذيبه قبل النظر ، ولم يراع هذا الاعتبار في سورة الأعراف مع قوم نوح أيضًا.

وقام الإمام الزمخشرى رحمه الله بتوجيه هذا المتشابه عند تناوله لقوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) [المؤمنون : ٣٣] ، يقول : " فإن قلت: ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) [الأعراف : ٦٦]، (قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ) [هود : ٥٣] وهاهنا مع الواو ، فأى فرق بينهما؟ قلت: الذي بغير واو على

[١] التحرير والتنوير: ١٨/ ٤١.

تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت ، وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل ، وشتان ما هما بلقاء الآخرة بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب "[1].

ولم يلق توجيه الزمخشري قبولًا من المفسرين من بعده ؛ لأنه لا يصف الدلالات البيانية التي دعت إلى بناء النظم على الاستئناف البياني عند إسقاط العاطف ، ولا يبين الدلالات التي دعت إلى تحقيق معنى الجمع عند العطف بالواو ، يقول السمين الحلبي تعليقًا على ما رآه الزمخشري : " قلت: ولقائل أن يقول: هذا جواب بنفس الواقع، والسؤال باقٍ؛ إذ يحسن أن يقال: لم لا يجعل هنا قولهم أيضاً جواباً لسؤال سائلٍ كما في نظيرتَيْها لو عكس الأمر؟ "[2] .

وأما الإسكافي والغرناطي فقد نظرا إلى المتشابه من ناحيتن : ناحية دلالة الجملة موضع المتشابه ، وناحية علاقتها بما قبلها يقول الغرناطي : " الواقع فى سورة هود من قوله تعالى مخبرًا عن جواب قوم نوح: " مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا "إلى آخر كلامهم كلام لا يستقل مبتدأ به بل يستدعى ما يبنى عليه ، إذ لا يفتتح أحد أحدًا مبتدئًا بمثل هذا ، وإنما يتكلم بهذا جوابًا ..... فلبناء هذا الكلام على ما قبله وتمحض الجوابية فيه ورد بالفاء المقتضية السببية والمبنية للجوابية ..... وأما قوله فى سورة الأعراف : " قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِين " فإن هذا وإن تضمن الجوابية فإنه كلام يستأنف ، ويبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه ، فناسب ذلك وروده بغير الفاء ، وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى ما يناسب فى النظم "[3] .

وما ذكره الإسكافي والغرناطي هو أولى مما ذهب إليه الزمخشري والطاهر

---

[1] الكشاف: ٣/ ١٨٦،

[2] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٨/ ٣٣٢.

[3] ملاك التأويل :١/ ١٩٣-١٩٤، وينظر درة التنزيل ٢/ ٦٠٢ .

، وهو يناسب دقة النظم القرآني ، ففارق بين جملة متمخضة للجواب مبنية على ما سبقها ، وأخرى متضمنة للجواب صالحة للابتداء بها، مشعرة بالاستقلال عما قبلها .

ومنه تعليقه على قوله تعالى : {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الحشر : ١] ،

يقول : "والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد [١] ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها: ((مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) وهاهنا قال: ((مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)) لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض، فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات، فجمع ذلك كله في اسم واحد هو (ما) الموصولة التي صلتها قوله:((فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) ، وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير ، فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي (ما)الموصولة الثانية التي صلتها ((فِي الْأَرْضِ))، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن[١].

فتوجيه الاختلاف قائم عند الطاهر على الغرض من السياق في كلتا الآيتين ، فالسياق الذي يهدف إلى التدليل على عظمة خلق الله يختلف عن سياق يهدف إلى التعبير عن فضل الله على المسلمين في انتصارهم على يهود بني النضير .

وتعليل الطاهر يثير الإعجاب ، لاسيما أنه لم يسبقه إليه أحد من علماء المتشابه من قبله ولا المفسرين ، وهو أولى التوجيهات في بيان الاختلاف في النظم .

وقد بنى الإسكافي توجيهه ههنا على مراعاة الإيجاز للإيجاز والإطناب

---

[١] التحرير والتنوير ٢٨/ ٦٤-٦٥.

للإطناب ، يقول : " لما كان هذا الكلام مسوقًا إلى كلمات ثلاث عقدت السموات والأرض في كل واحدة منها في عقدة واحدة ، وهي قوله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد :٢] ، وقوله بعده: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام) [الحديد :٤] ، وقوله بعده: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور) [الحديد: ٥] ، فلما كان افتتاح السورة ينتهي إلى هذه الآيات بعدها ، وهي تنظم المكانين نظمًا واحدًا اختير أن يجعل الخلق فيهما خلقًا واحدًا ، فلا يفصل بينهما بخلقهما ،والقصد جمعهما في نظام واحد ، ولم يكن هذا المعنى موجودًا في سائر السور ، فكان الفصل فيه أولى ، وهو إعادة "ما " [1]

وما ذكره الإسكافي وإن كان يحقق لونًا من التناسق اللفظي ، ولكن يبقى السر الذي أثبته الطاهر أقوي في توجيه اختلاف النظم .

ولعل ما ذكره الطاهر في بيانه للغرض من السياق في سورة لحشر ليس فقط سرًا لعدم تكرار (ما) الموصولة في مفتتح السورة ، بل لباقي المواضع التي لم تتكرر فيها (ما) ، والتي أوردها الإسكافي في سورة الحشر.

والتناسق اللفظي الذي ذكره الإسكافي يأتي بعد تحقيق الغرض من النظم ، فالغرض الأساس لتنوع النظم هو اختلاف الغرض من السياق .

[1] درة التنزيل ٣/ ١٢٥١ ، وما بعدها " بتصرف يسير" .

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية في المتشابه من الألفاظ

دارت ملاحظات الطاهر في اختلافات المتشابه من الألفاظ القرآنية حول إبدال كلمة بأخرى ، وتغيير بنية الكلمة ، والتقديم والتأخير.

أولًا : إبدال كلمة بأخرى .

ومنه قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء : ١١٦]

إذ يقول معلقًا على الآية السابقة وموضحًا التشابه والاختلاف : " وتقدم القول في مثل هذه الآية قريبًا ، غير أن الآية السابقة قال فيها: ((وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْمًا عَظِيمًا)) [النساء: ٤٨] وقال في هذه: ((فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً)) ، وإنما قال في السابقة فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً لأن المخاطب فيها أهل الكتاب بقوله : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ)) [النِّسَاء: ٤٧] فنبهوا على أن الشرك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم من الافتراء وتفظيعًا لجنسه ، وأما في هذه الآية فالكلام موجه إلى المسلمين فنبهوا على أن الشرك من الضلال تحذيرًا لهم من مشاقة الرسول وأحوال المنافقين فإنها من جنس الضلال "[1]

فهو قد بنى توجيهه لاختلاف النظم على اختلاف المخاطب ، فهو يرى أن المخاطب في الآية الأولى هم أهل الكتاب ، فنبهوا على أن الشرك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم من الافتراء وتفظيعًا لجنسه .

وكلام علماء المتشابه والمفسرين الذين تناولوا هذا الموضع كالإسكافي والغرناطي وأبي حيان وابن جماعة أكشف وأوضح في تجلية سر الاختلاف في هذه الآية ؛ إذ يذهبون إلى أن المخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب وهم يعرفون من خلال كتبهم أمر الرسول ﷺ ، ووجوب إتباع شريعته ،

[1] التحرير والتنوير ٢٠٢/٥.

ونسخها جميع الشرائع ، ومع ذلك قد أشركوا بِاللَّه ، فصار ذلك افتراء واختلاقًا مبالغًا في العظم والجرأة على اللَّه ، ولذلك قال عنهم (فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)[1].

والطاهر وإن اتفق مع علماء المتشابه والمفسرين في الآية السابقة في أن المخاطب هم أهل الكتاب ، إلا أنه في الآية الأخرى يرى أن الخطاب فيها موجه للمسلمين .

وهذا الفهم يدفعه ما ذكره أبو حيان إذ يقول : " هي في ناسٍ مشركين ليسوا بأهل كتب ولا علوم ، ومع ذلك فقد جاءهم بالهدى من اللَّه، وبان لهم طريق الرشد فأشركوا بِاللَّه ، فضلوا بِذلك ضلالًا يستبعد وقوعه ، أو يبعد عن الصواب ، ولذلك جاء بعده : ((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)) النساء : ١١٧ ، وجاء بعد تلك : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ)) النساء: ٤٩ وقوله : ((انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)) النساء :٥٠"[2].

وسر الاختلاف عند علماء المتشابه في الآية الأخيرة هو كما يبين الإسكافي بقوله : " وأما إتباع الثاني ((فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً)) فلأن من أريد به مشركو العرب ، وهم لم يتعلقوا بما يهديهم ، ولا كتاب في أيديهم فيرجعوا إليه فيما يتشككون فيه فقد بعدوا عن الرشد وضلوا أتم الضلالات"[3].

وكلام القوم في توجيه المتشابه هو المناسب في بيان سر الاختلاف ، كما أن اختلاف المخاطب ليس هو فقط سر الاختلاف ، وإنما ما ذكره من أوصاف المخاطب التي بينها السياق ، وهو ما بينه القوم.

---

[1] درة التنزيل ٤٠٤/١ –٤٠٥ ، وملاك التأويل١٠٦/١ ، والبحر المحيط ٦٨/٤ ، وكشف المعاني صـ :١٣٨ –١٣٩ .

[2] البحر المحيط ٦٨/٤ .

[3] درة التنزيل ٤٠٨/١، وينظر ملاك التأويل١٠٦/١ ، والبحر المحيط ٦٨/٤ ، وكشف المعاني صـ : ١٣٨ –١٣٩ .

وتأمل ما ذكره أبو حيان من إتباع الآية الثانية قوله تعالى : ((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)) [النساء :١١٧]، وعندئذ فلا وجه لكون الآية موجهة للمؤمنين كما ذهب الطاهر .

ومنه توجيهه الاختلاف بين (المس) و(الإرادة) في قوله تعالى: { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام : ١٧]

وقوله تعالى: { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس : ١٠٧].

وقد بنى الطاهر توجيهه للمتشابه على ما لاحظه من تغاير في السياقين ، فالمتشابه في الأنعام ورد في سياق بيان قدرة الله تعالى ، وأما في يونس فقد ورد في سياق التنزيه لله عن المعارض والمعاند فهو يحتاج إلى عناية أكثر ، فاختير لسياق يونس ما هو أشمل في الدلالة ، وأدل على التنزيه وهو (وَإِنْ يُرِدْكَ) .

يقول الطاهر في التعليق على الآية الأخيرة : " وقد عبر بالمس في موضع الإرادة في نظيرها في سورة الأنعام [١٧] ((وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)) ، ولكن عبر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائنًا من كان بحيث لا يستطيع التعرض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإن التعرض حينئذ أهون لأن الدفع أسهل من الرفع، وأما آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى ، لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند "[1].

وما ذكره الطاهر جيد ولم يسبقه إليه أحد من علماء المتشابه ، وهو إن كان قد اعتمد على السياق في توجيهه فقد اعتمد عليه كذلك الغرناطي ،

[1] التحرير والتنوير ١١/ ٣٠٦.

ولكن من وجه آخر ، وهو أنه قد ورد في سياق المتشابه في سورة يونس بيان لكون الخلائق تجري على مقدور الله تبارك وتعالى ، وفيه إمعان وتأكيد في بيان أن إرادته لا تتخلف أبدًا ، بينما يخلو السياق في الأنعام من هذا المعنى ، ولذلك اختير في يونس التعبير الأشمل (وَإِنْ يُرِدْكَ).

يقول الغرناطي : " تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُون ...)) يونس :٩٦ فهو إعلام منه سبحانه بجرى الخلائق على ما قدر لهم أزلًا وسبق به حكمه تعالى ، ثم أعقب بقوله تعالى: ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)) يونس : ٩٩ فهذا تأكيد للغرض المذكور من جرى العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم ، وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض ، فناسب هذا قوله تعالى: ((وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)) أتم مناسبة ، ثم وقع بعد هذا قوله تعالى: ((يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)) وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله فى آية الأنعام : ((وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ)) فاجتمع فى آية يونس الأمران معًا ، وكأن قد قيل: وإن يمسسك بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به وأراده لك ،..... ولم يتقدم فى آية الأنعام مثل هذا فوقع الاكتفاء هناك بقوله: ((وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)) "[1].

وهكذا يكون السياق من أكثر من وجه داعيًا إلى هذا التغاير في النظم، وأما علماء المتشابه الآخرين فلم يقفوا على هذا الموضع سوى ما ذكره ابن جماعة يقول : " وأما الخير فقد يراد قبل نيله بزمن، إما من الله تعالى ، ثم ينيله بعد ذلك ، أو من غيره ، فهي حالتان : حالة إرادته قبل نيله ، وحالة نيله ، فذكر الحالتين في السورتين ، فآية الأنعام : حالة نيله، فعبر عنه بالمس المشعر بوجوده ، ثم قال: (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي على ذلك ، وعلى خيرات بعده ، وفيه بشارة بنيل أمثاله ، وآية يونس: حالة إرادة الخير

[1] ملاك التأويل ١/ ١٤٨.

قبل نيله، فقال: (يُرِدْكَ)"[1]

وما ذهب إليه ابن جماعة لا ينهض بسر توجيه المتشابه في الآيتين، لأنه لا يجيب عن سؤال: لم آثر أن يأتي بإرادة الخير في يونس والمس بالخير في الأنعام ؟.

ومنه توجيهه فاصلتي آيتي سورة الفتح في قوله تعالى : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)} وقوله : {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)}.

ويراعي الطاهر اختلاف المقصود بقوله تعالى: ((جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) فيما قبل موضع المتشابه في الآيتين ، يقول معلقًا على الآية الأخيرة: " أوثر بصفة عزيز دون عليم لأن المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحل بالمنافقين والمشركين ، فكما ذكر ولله جنود السماوات والأرض فيما تقدم للإشارة إلى أن نصر النبي ﷺ يكون بجنود المؤمنين وغيرهما ذكر ما هنا للوعيد بالهزيمة فمناسبة صفة عزيز، أي لا يغلبه غالب "[2].

فالإنذار والوعيد يناسبه ذكر العزة ، والوعد بالنصر يناسبه ذكر العلم ، وهذا القول ذهب إليه الكثير من المفسرين وعلماء المتشابه كالرازي وأبوحيان والفيروزآبادي والإسكافي والكرماني والغرناطي وابن جماعة [3].

---

[1] كشف المعانى فى المتشابه من المثاني صـ : ١٥٧.

[2] التحرير والتنوير ٢٦/ ١٥٤.

[3] مفاتيح الغيب ٢٨/ ٧١ ، البحر المحيط ٩/ ٤٨٦، بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٣٢-٤٣٣ ، درة التنزيل ٣/ ١١٩٠ ، ملاك التأويل ٢/ ٤٤٥ ، البرهان في متشابه القرآن صـ: ١٩٤ ، كشف المعانى صـ: ٣٤٠.

ثانياً : إبدال بنية الكلمة.

بعض الآيات المتشابهة تستخدم كلمة منها بصيغة في موضع ، وفي موضع آخر بصيغة أخرى ، وكان للطاهر توجيهاته لبعضها .

ومن ذلك توجيهه للسور المفتتحة بـ (سَبَّحَ لِلَّهِ) بصيغة الماضي و (يُسَبِّحُ لِلَّه) بصيغة المضارع ، فقد وردت صيغة الماضي في سور (الحديد) و(الحشر) و(الصف) ، ووردت صيغة المضارع في سورتي (الجمعة) و (التغابن) .

وقد علق الطاهر على بعض من هذه الآيات ، وقد ارتكز توجيهه للاختلاف على مراعاة الغرض من السورة ، ولعل أوضح النماذج على ذلك توجيهه ورود صيغة المضارع في سورة الجمعة يقول : " هذه السورة جاء فيها فعل التسبيح مضارعًا ، وجيء به في سواها ماضيًا لمناسبة فيها وهي : أن الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة والتنديد على نفر قطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو ، فمناسب أن يحكى تسبيح أهل السماوات والأرض بِما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضًا بِالذين لم يتموا صلاة الجمعة"[1].

وهذا توجيه طيب فما اشتملت عليه السورة من بيان أهمية صلاة الجمعة وضرورة الدوام عليها يناسبه استمرار تسبيح أهل السموات والأرض .

وكذلك ارتكز في توجيه ورود صيغة المضارع في سورة التغابن على ما اشتملت عليه السورة من الدعوة إلى الاجتهاد في المعروف والأعمال الصالحة، وذلك من جهة أن هذا يناسبه استمرار التسبيح وتجدده، يقول : " زيادة على ما بيناه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة ؛ لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول

[1] التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٠٦.

إيمانهم ، ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة " [١].

وفي توجيه مفتتح سورة الحشر بصيغة الماضي يراعي المقصد من السورة فيقول : " وأوثر الإخبار عن ((سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ)) بفعل المضي لأن المخبَر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير"[٢].

وما ذكره الطاهر تعليلات تناسب النظم وتلاءم بلاغته المعجزة ، ولم يسبقه أحد من علماء المتشابه أو المفسرين إلى هذه التوجيهات ، فقد اكتفى الغرناطي بأن دلالة (سَبَّحَ) المضي ودلالة (يُسَبِّحُ) الحال والاستقبال ، وحين نضمهما معاً فلإحراز الماضي والحال والاستقبال ، ولم يوضح الداعي لاختصاص سور بصيغة الماضي وسور بصيغة المضارع ،[٣] وهذا القول سبق إليه الزمخشري والفخر الرازي[٤] وذهب إليه أبو حيان والألوسي [٥].

أما الكرماني فقد ذكر أن هذه الكلمة استأثر الله بها فبدأ بِالمصدر في الإسراء لأنه الأصل ثم بالماضي لأنه أسبق الزمانين ثم بالمستقبل ثم بِالأمر في سورة الأعلى ، استيعابًا لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهي أربع المصدر والماضي والمستقبل والأمر [٦] ووافقه الأنصاري[٧]

ولاشك أن ما ذكره الطاهر هو الأنسب ببلاغة القرآن وإعجازه ، دون كل ما ذكر من توجيهات المفسرين وعلماء المتشابه .

---

[١] التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٠٦.

[٢] نفس المرجع السابق والصفحة.

[٣] ملاك التأويل ٢/ ٤٦٧.

[٤] الكشاف ٤/٦٠ ، ومفاتيح الغيب ٢٩ /١٧٩-١٨٠.

[٥] البحر المحيط ٨/٢١٧ ، وروح المعاني ١٤/ ١٦٦.

[٦] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ: ٢٣٢.

[٧] فتح الرحمن صـ : ٥٥١ .

ومن ذلك توجيهه الاختلاف بين قوله تعالى في سورة هود: {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) } و قوله تعالى في سورة النحل: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) }.

وهذا المتشابه أدار العلماء توجيهه حول مراعاة السياق السابق ، ولكن كان كل فريق ينظر إلى لفتة مغايرة في السياق السابق تقتضي الاختلاف وتستدعي تغاير النظم .

والطاهر يسلك هذا الأساس في توجيه المتشابه ، ففي تحليله لموضع المتشابه في سورة النحل يقول : " ووقع في سورة هود [٢٢] ((هُمُ الْأَخْسَرُونَ)) ، ووقع هنا ((هُمُ الْخَاسِرُونَ)) لأن آية سورة هود [٢١] تقدمها ((أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كانُوا يَفْتَرُون)) ، فكان المقصود بيان أن خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا "[١].

وهذا التوجيه من الطاهر توجيه معتبر ويستدعي التغاير ، وإن كان أقوى سر للاختلاف هو ما ذكره الإسكافي مراعيًا السياق السابق من وجه آخر ، هو أنه أخبر في سورة هود عن قوم استحقوا مضاعفة العذاب ، وذلك لإعراضهم عن دين الله وصد غيرهم في قوله تعالى: ((الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون)) (هود: ١٩) ، فهذا لـ (الأخسرين) دون (الخاسرين) ، وأما في سورة النحل فإنها في آية لم يخبر فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، وإنما قال فيهم: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (النحل: ١٠٧) فلم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب [٢] ، وتابع الإسكافي في

---

[١] التحرير والتنوير : ١٤/ ٢٩٨.

[٢] درة التنزيل ٢/ ٧٥٣ ، وما بعدها.

هذا القول الكرماني [1] والأنصاري [2].

وأما الغرناطي فهو يراعي السياق السابق من وجه مغاير للإسكافي والطاهر ، وهو أن آية هود تقدمها ما يفهم المفاضلة، وهو قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) (هود: ١٧)، فالآية يفهم من سياقها أن المراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد وكذب الرسل؟ ثم أتبع هذا بقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) (هود: ١٨)، فهذا صريح مفاضلة ، وأما آية (النحل) فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمهما، وإنما قبلها: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ) (النحل: ١٠٤-١٠٥)، وبعد هذا (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (النحل: ١٠٧)، وبعد هذا (وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ) (النحل ١٠٨)، ولذا كان المناسب لآية هود (الْأَخْسَرُونَ) دون آية النحل [3].

وهذا التوجيه من الغرناطي يلي قول الإسكافي في القوة ، وأما توجيه الطاهر فيحسب له عدم الاقتصار على أقوال المتقدمين والاكتفاء بها، وإن كان أقل من سابقيه.

ومنه توجيهه الاختلاف في بنية الفعل (كذب) فقد جاء بصيغة المبني للمفعول في سورة آل عمران في قوله تعالى : { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)}، وجاء بصيغة المبني للفاعل في سورة فاطر في قوله تعالى : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥)}.

ويراعي الطاهر الغرض من السياق في توجيه اختلاف الفعلين ،

---

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٤٣.

[2] فتح الرحمن ١/ ٢٦٢.

[3] ملاك التأويل ٢/ ٢٥٤-٢٥٥.

يقول في تفسيره آية فاطر : " أعقب الثناء على النبي ﷺ بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأن تلك سنة الرسل مع أممهم ، وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران [١٨٤] : ((فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)) لأن سياق آية آل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول ﷺ لأن قبلها ((الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)) [آل عمران: ١٨٣] " [١]

ولم يتناول أحد من علماء المتشابه سر اختلاف هذين الفعلين سوى الطاهر، وتوجيهه دقيق .

ثالثاً : التقديم والتأخير.

كان للطاهر وقفات على أسرار التقديم والتأخير في الآيات المتشابهة ، وذلك تبعًا للمقاييس البلاغية المعتبرة لدى البيانيين .

ومن ذلك تعليقه على المتشابه في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [النساء :١٣٥]

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا } [المائدة : ٨].

فالطاهر يراعي في توجيه المتشابه ما بني عليه كل موضع ، أو بعبارة أخرى المعاني السابقة لموضع التشابه التي تدعو إلى اختلاف في النظم ، ففارق بين تعبير يأتي بعد الدعوة إلى العدل في الحقوق ، وآخر يأتي بعد التذكير بعهد الله وميثاقه.

يقول : " الآية التي في سورة النساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق المبتدأة بقوله : (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما

[١] التحرير والتنوير: ٢٢/ ٢٩٨.

أَرَاكَ اللَّهُ) [النساء: ١٠٥] ، ثم تعرضت لقضيةِ بني أُبَيْرِقٍ في قوله: (وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً) [النساء: ١٠٥] ، ثم أردفت بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء ، فكان الأهم فيها أمر العدل فالشهادة، فلذلك قدم فيها (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ)[النساء: ١٣٥] فالقسط فيها هو العدل في القضاء ، وأما الآية التي نحن بصدد تفسيرها فهي واردة بعد التذكير بميثاق اللَّه ، فكان المقام الأول للحض على القيام لِلَّه ، أي الوفاء له بعهودهم له ، ولذلك عُدِّيَ قوله : (قَوَّامِينَ) باللام. "[1].

وبذلك يتوافق الطاهر مع الغرناطي في الاعتماد على السياق السابق في توجيه المتشابه. [2]

وأما الخطيب الإسكافي فيراعي ضابطًا آخر هو اختلاف المخاطب ، ففي آية النساء الخطاب عام يدعو إلى العدل مع كل ظالم حتى يؤخذ منه الحق ، والبعد عن الهوى والميل إلى ذوي القربى ، والدليل على ذلك قوله تعالى بعده: (وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِين) وفي آية المائدة الخطاب للولاة فيكون المعنى كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل ، والدليل على أن الخطاب لولاة الأحكام قوله تعالى بعده : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)[3].

فقدم في كل آية ما يناسب المخاطب بالآية ، فخطاب عام يدعو إلى العدل مع كل أحد حتى مع ذوي القربى المناسب فيه تقديم ما يدل على العدل وهو لفظ (القسط) ، أما الخطاب الموجه لولاة الأحكام من أجل التزام العدل حتى مع جاه الحكام وسلطانهم فالمناسب فيه تقديم لفظ الجلالة، حتى يكون أدعى إلى التزام العدل .

---

[1] التحرير والتنوير: ٢٢/ ٢٩٨.

[2] ملاك التأويل: ١/ ١١١ .

[3] درة التنزيل ١/ ٤١٩-٤٢٠ .

ومن ذلك توجيهه اختلاف الترتيب بين (الضر ، والنفع) في الآيات التالية :

قوله تعالى في سورة المائدة : { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) }.

وقوله تعالى في سورة الأعراف : {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) }.

وقوله تعالى في سورة يونس : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) } .

يقول معلقًا على تقديم الضر على النفع في آية يونس : " وقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد، ولأن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع؛ فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء ، والمقصود من جمع الأمرين الإحاطة بجنسي الأحوال، وتقدم في سورة الأعراف وجه تقديم النفع على الضر في نظير هذه الآية[١].

ويقول في التعليق على آية الأعراف : " وقدم النفع في الذكر هنا على الضر لأن النفع أحب إلى الإنسان، وعكس في آية المائدة لأن المقصود تهوين أمر معبوداتهم ، وأنها لا يخشى غضبها "[٢].

والمتأمل في هذه التحليلات يجد أنها تدور حول مراعاة العنصر الأهم في السياق ، ففي سورة يونس استبطاء من الكفار لوقوع العذاب بهم فالأهم تقديم الضر ، وكذلك في سورة المائدة المقصود من السياق بيان ضعف آلهتهم فالأهم كذلك تقديم الضر ؛ لأن درء المفاسد أيسر من جلب المنافع .

---

[١] التحرير والتنوير : ١١ /١٨٩- ١٩٠.

[٢] المرجع السابق : ٩ / ٢٠٧

وما ذكره الطاهر تحليل طيب يدل على منهج تحليلي قائم على التأمل في مواقع بناء الكلام وتلاؤم ترتيبه مع الغرض من السياق .

وهذه التوجيهات ذهب إليها الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي وابن جماعة[1]

وأما قول الطاهر في سورة الأعراف : " وقدم النفع في الذكر هنا على الضر: لأن النفع أحب إلى الإنسان " فهو لا يكفي في التوجيه ، وأولى منه ما ذهب إليه الإسكافي مراعيًا كذلك الأهم في السياق ، حيث ذكر أن هذه الآية جاءت بعد قوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) [الأعراف :١٨٧] ، ثم جاءت الآية محل الشاهد ، وهي بيان أن الرسول ﷺ لا يقتدر على تعجيل ثواب ولا عقاب ، فلما تقدم الآية سؤالهم عن الساعة ظنًا منهم أن عنده علم ، والعلم بالشيء يؤدي إلى نفع صاحبه ؛ فترتب عليه تقديم النفع على الضر [2] .

ومن ذلك توجيه اختلاف التقديم والتأخير في مطلع سورة الحجر: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) } وفي مطلع سورة النمل : {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) } .

والطاهر يبني توجيه المتشابه على اختلاف الغرض من السياق ، فيرى أن السياق في آية النمل " للتنويه بالقرآن ومتبعيه المؤمنين ، فكان الأهم هو استحضاره باسمه العلم المنقول من مصدر القراءة ؛ لأن القراءة تناسب حال المؤمنين به والمتقبلين لآياته فهم يدرسونها ، وأما ما في أول سورة الحجر فهو مقام التحسير للكافرين من جراء إعراضهم عن الإسلام ؛ فناسب أن يبتدئوا باسم الكتاب المشتق من الكتابة دون القرآن لأنهم بمعزل عن

---

١ ينظر : درة التنزيل ٦٨٢/٢-٦٨٥ ، وملاك التأويل ٥٧٧/١ ، وكشف المعاني صـ ١٨٨: .

٢ ينظر : درة التنزيل ٦٨٢/٢-٦٨٣ .

قراءته ولكنه مكتوب، وحجة عليهم باقية على مر الزمان"[1].

وقد ذهب الكثير من المفسرين كالزمخشري والرازي والنيسابورى إلى التسوية بين التعبيرين ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب [2]

ولم يتناول من علماء المتشابه هذا الموضع إلا الأنصاري ، وعزاه إلى التفنن في التعبير [3]

وأما الغرناطي فلم يتناول سر اختلاف النظم بين الآيتين ، ولكنه تناول ما ورد بعد الآيتين من اختلاف ، فذكر أن آية الحجر ورد بعدها الحديث عن اللوح المحفوظ ابتداء من قوله تعالى : ((وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)) (الحجر: ١٦) ثم ورد الحديث عن القرآن ابتداء من قوله تعالى: ((وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)) (الحجر: ٥١) ، وأما آية النمل فورد بعدها الحديث عن القرآن ابتداء من قوله تعالى : ((وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ))(النمل: ٦)، ثم أعقبه بالحديث عن اللوح المحفوظ ابتداء من قوله تعالى: ((أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)) (النمل:٦٠) .

وعزا هذا الاختلاف إلى أن المقصود بالكتاب في مطلع السورتين اللوح المحفوظ ، وقد قدم على القرآن في مطلع سورة الحجر ، بينما قدم القرآن عليه في مطلع سورة النمل [4].

وكان خليقًا بالغرناطي قبل أن يوجه الاختلاف السابق أن يبين سر الاختلاف في مطلع السورتين ، لاسيما أنه قد بنى عليه توجيهه السابق .

ومن خلال ما سبق يتبين أن أنسب التوجيهات هو ما ذهب إليه

---

[1] التحرير والتنوير – ١٩ / ٢١٨ " بتصرف ".

[2] الكشاف ٣/ ٣٤٧ ، مفاتيح الغيب ٢٤/ ٥٤٠ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥/ ٢٩٢.

[3] فتح الرحمن ١/ ٤١٧.

[4] ينظر فحوى ذلك في ملاك التأويل ٢/ ٢٧٥-٢٧٦ .

الطاهر ، والذي لم يسبقه إليه أحد من المفسرين أو علماء المتشابه .

ومن ذلك توجيه الاختلاف في ترتيب النظم في سورتي (القصص) و(يس)، حيث جاء على وضعه الأصلي في سورة القصص فولي الفاعل الفعل في قوله تعالى : { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)} ، وأما في سورة يس فقدم الجار والمجرور على الفاعل في قوله تعالى : { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} .

وقد ارتكز الطاهر في التوجيه على اختلاف المتحدث عنه وحاله، فقد رأى أن الرجل في سورة (يس) كان داعيًا للإيمان ، ولذلك قدم ((مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ)) إذ فيه عناية واهتمام وثناء على أهل أقصي المدينة ، وأن الخير قد يوجد في الأطراف ، ولا يوجد في الوسط ، وأما في سورة القصص فكان الرجل مجرد ناصح، فلم يكن هناك ما يدعو للتقديم [1].

والخطيب الإسكافي يراعي اعتبارًا آخر مناسبًا يدعو إلى اختلاف النظم هو اختلاف الغرض من السياق، من جهة أن التقديم في (يس)للدلالة على تبكيت القوم ، وأما في (القصص) فلا يوجد ما يدعو إلى التبكيت ، يقول : " قدّم ما تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: ((وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ)) ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على إتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم ، وأمّا الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورًا لمكانه فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدّم ما أصله التقديم وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبكيت للقوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة "[2]، ووافقه الغرناطي [1]

---

[1] التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٦٥-٣٦٦.

[2] درة التنزيل ٣/١٠٨٤-١٠٨٥ .

المبحث الرابع
الأسرار البلاغية في المتشابه من الجمل

اختلاف نظم الجملة القرآنية من سمات الإعجاز القرآني ، وقد يكون الاختلاف بين الجملتين من حيث تقديم المفردات بعضها على بعض ، والذكر والحذف للكلمات والحروف ، وإبدال كلمة بأخرى ، وذلك كله في موضوع واحد .

ومن الاختلاف الذي وجهه الطاهر من هذا النوع قوله تعالى : {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[آل عمران: ١١].

وقوله تعالى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال :٥٢].

تختلف الآيتان السابقتان في مواضع ففي سورة آل عمران (كَذَّبُوا بِآيَاتِنا) وَفي الأنفال (كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) وفي آل عمران (وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وَفي الأنفال (إِ نَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

فَأَمَّا الْمُخَالَفَةُ بَين (كَذَّبُوا) و(كَفَرُوا) فقد علل الطاهر لمجيء (كَفَرُوا) في الأنفال بقوله: " لأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر باللَّه وتكذيب رسله ، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول ﷺ ، فذكروا هنا ابتداء بالأفظع من الأمرين فعبر بالكفر بالآيات عن جحد الآيات الدالة على وحدانية اللَّهِ تعالى ، لأن الكفر أصرح في إنكار صفات اللَّه تعالى ".

فأما في سورة آل عمران [١١] فهو يرى أنه قد ذكر تكذيبهم بالآيات ، وذلك " لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدق به، وإلحاد

---

[١] ملاك التأويل ٢/ ٣٨٤.

من قصد الفتنة بمتشابهه، فعبر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب "[1].

وهو يراعي في سورة الأنفال الأدل على الجحود والإنكار ، وفي آل عمران يراعي السياق السابق وهو قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) } .

أما الغرناطي فهو يراعي السياق في كلا الموضعين يقول : " آية آل عمران لما تقدم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثلاثة والإشارة إلى ما تضمنته من الهدى والفرقان وإنما أتى على من كفر بصده عنها وتكذيبه ناسب ذلك قوله تعالى : ((كَذَّبُوا بِآياتِنا)) ، ولما لم يقع فى سورة الأنفال من أولها إلى الآية الأولى من الآيتين ذكر شيء من الكتب المنزلة ولا ذكر إنزالها ، وإنما تضمنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفار العرب ، ومعظم ذلك فى قتالهم وحربهم ناسب ذلك التعبير بالكفر فقال تعالى: ((كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ)) "[2].

وما ذكره الغرناطي أدق فهو يراعي السياق في كلا الموضعين ، أما الطاهر فهو يراعي السياق فقط في آل عمران ، أما توجيهه للمتشابه في الأنفال فهو لا يفي ، لأنه لم يحدد وجه اختيار اللفظ الأدل على الكفر والجحود دون غيره.

أما الإظهار في موضع الإضمار في سورة الأنفال فاقتضاه عند الطاهر " أن الكفر كفر بما يرجع إلى صفات الله فأضيفت الآيات إلى اسم

---

[1] التحرير والتنوير ١٠/ ٤٣.

[2] ملاك التأويل : ١/ ٧٨.

الجلالة ليدل على الذات بعنوان الإله الحق وهو الوحدانية "[1].

وأما الإضمار في آل عمران فهو يرى أن داعيه " لكون التكذيب تكذيبًا لآياتٍ دالة على ثبوت رسالة محمد ﷺ، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلم " [2].

وما ذهب إليه الغرناطي أولى لمراعاته السياق السابق ، يقول : " الآية الأولى من سورة الأنفال إنما جيء فيها بالاسم الظاهر فقيل: ((كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)) لتقدم ذكر الملائكة فى قوله : ((وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)) [الأنفال:٥٠] بنسبة الفعل للملائكة ، وتقدم أيضا ((وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)) [الأنفال:٤٨]، ولم يتقدم فى آل عمران ذكر فعل لغير الله تعالى ولا نسبة شيء لسواه ، فجيء بآيات مضافة إلى ضميره تعالى"[3].

وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد في الأنفال دونه في آل عمران ، فقد رأى الطاهر أن داعيه اختلاف المقصود بالإخبار في كلا الموضعين ، يقول رحمه الله معلقًا على آية الأنفال : " فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم بمعنى لازمها، وهو إنزال الضر بهم، وينكرون أنه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران [١١] لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله عقبه : ((قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُون)) [آل عمران: ١٢] ، وزيد وصف (قوي) هنا مبالغة في تهديد المشركين

---

[1] التحرير والتنوير: ١٠/ ٤٣.

[2] التحرير والتنوير : ١٠/ ٤٤.

[3] ملاك التأويل ١/ ٧٨.

المقصودين بالإنذار والتهديد "[1]، وهذا مراعاة للمخاطب ، واختلاف للبناء باختلاف حال المخاطب.

ويراعي الغرناطي داعياً آخر لاختلاف البناء ، وهو رعاية التقابل مع السياق السابق في آية الأنفال بخلاف آية آل عمران ، يقول : " أن قوله تعالى فى الآية الأولى من الأنفال: ((إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ)) مقابل به قول الشيطان لمن قدم ذكره من الكفار : ((لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُم)) الأنفال :٤٨ فقوبل قوله المضمحل بإسناد القوة لله –عز وجل – كما قال تعالى: ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..البقرة : ١٦٥، ولما لم يرد فى سورة آل عمران مثل هذا وقع الاكتفاء بقوله : ((وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ)) وزيد التأكيد فى أول الأنفال بـ (إن) وزيادة اسمه سبحانه القوى لما ذكرنا آنفًا من رعى التقابل"[2]،

وهكذا يكون للاختلاف أكثر من وجه بليغ يدعو إليه ويتطلبه.

ومن ذلك قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى : { وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الْأَنْفَال : آيَة ١٠].

أوضح الطاهر أن الآيتين المتشابهتين السابقتين تختلفان في ثلاثة مواضع ، هي الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، وتغاير فاصلتي الآيتين.

أما الذكر والحذف ففي آل عمران (إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ) ، وحذف (لَكُمْ) في الأنفال، وقد ذكر سبب الاختلاف عند تفسيره لآية الأنفال يقول :" وحذف (لَكُمْ) هنا دفعًا لتكرير لفظه لسبق كلمة(لَكُمْ) قريبًا في قوله: (فَاسْتَجابَ لَكُمْ) [الأنفال: ٩] فعلم السامع أن البشرى لهم، فأغنت (لكم) الأولى بِلفظها

[1] التحرير والتنوير ١٠/ ٤٤

[2] ملاك التأويل ١/ ٧٩.

ومعناها عن ذكر (لكم) مرة ثانية "[1]

وهذا تعليل لفظي وقد ذهب إليه الإسكافي وتابعه فيه الكرماني وابن جماعة والأنصاري ، يقول الإسكافي :" (لكم) مضمرة في سورة الأنفال كما هي مظهرة في هذه السورة، فلأن الأولى جاءت على الأصل، والثانية قد تقدمها (لكم) فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها، وهي في قوله: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) [الأنفال : ٩]، فلما قال : (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) علم أنه جعل بشرى لهم ، فأغنت (لَكُمْ) الأولى بلفظها ومعناها عن الثانية، وفي الآية الأولى لم يتقدم ما يقوم مثل هذا المقام، فأتى بقوله: (لَكُمْ) على الأصل"[2].

ولم يكتف الطاهر بالتعليل اللفظي ولكنه يراعي موضوع السياق أيضًا في لفتة لم يسبقه إليها أحد ، يقول: : " ولأن آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف، فكان تقييد بشرى بأنها لأجلهم زيادة في المنة أي: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم كقوله تعالى: ((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)) [الشرح: ١] وأما آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر، وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة، فجرد بشرى عن أن يعلق به (لكم) إذ كانت البشرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين، وقد تقدم ذلك في آل عمران "[3].

أما الغرناطي فله تعليل آخر يراعي فيه السياق من وجه آخر غير ما ذكره الطاهر يقول: " آية آل عمران لما تقدم فيها قوله تعالى: " وَيَأْتُوكُمْ مِنْ

---

[1] التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٦.

[2] درة التنزيل ١/ ٣٩٠ ، وينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ: ١٥١ ، كشف المعاني : ١٣٢، فتح الرحمن صـ :٧٢ .

[3] التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٦-٢٧٧.

فَوْرِهِمْ " [آل عمران: ١٢٥] والإخبار عن عدوهم ، فاختلط ذكر الطائفتين وضمهما كلام واحد ، فجردت البشارة لمن هدى منهما وأنها لأولياء الله المؤمنين ، فجيء بضمير خطابهم متصلًا بلام الجر المقتضية الاستحقاق فقيل: " بُشْرَى لَكُمْ "..... ، أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى الضمير الخطابي فى(لكم) ، وأيضا فإن آية الأنفال قد تقدم قبلها قوله تعالى: ((وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ)) [الأنفال: ٧] ، فأغنى عن عودته فيما بعده اكتفاء بما قد حصل مما تقدم من تخصيصهم بذلك"[١].

أما التقديم والتأخير ففي آل عمران [١٢٦] ((وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ)) ،وفي الأنفال ((وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ) وقد اكتفي الطاهر بذكر فائدة التقديم الذي جاء على غير الأصل وهو التقديم في آية الأنفال يقول : " تقديم المجرور هنا في قوله:((بِهِ قُلُوبُكُمْ)) وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى: ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرض لهم بأنهم لم يتفهموا مراد الرسول ﷺ، حين استشارهم، وأخبرهم بأن العير سلكت طريق الساحل فكان ذلك كافيًا في أن يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمحضت أنها طائفة النفير، وكان الشأن أن يظنوا بوعد الله أكمل الأحوال، فلما أراد الله تسكين روعهم وعدهم بنصرة الملائكة علمًا بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك "[٢].

فالسياق عند الطاهر في سورة الأنفال يفيد قصر اطمئنان القلوب على طائفة النفير، والذي دعاه إلى هذا القول هو أن السياق للعتاب على كراهيتهم الخروج إلى بدر أول الأمر ، ورغبتهم في أن تكون الطائفة التي

---

[١] ملاك التأويل ١/ ٨٩.

[٢] التحرير والتنوير: ٩/ ٢٧٧.

تلاقيهم غير ذات الشوكة.

أما السياق في آل عمران فلا يقتضي التقديم والقصر ، وذلك لأنه في تقديري أن آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف فيكفي فيه مجرد إثبات اطمئنان قلوبهم ، وهذا لم يذكره الطاهر صريحًا ، ولكنه مبني على حديثه السابق عن تقييد البشرى في آل عمران بأنها لهم ((إلا بشرى لكم)).

أما الإسكافي فقد بنى تأخير الضمير المجرور في آية آل عمران على المناسبة اللفظية ومراعاة النظير في النسج ، يقول : " وأما تأخير (بِهِ) بعد قوله: (قُلُوبُكُم) فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول، وهو قوله تعالى: ((وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى..)) ، وعطف الكلام الثاني عليه، وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرهما في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام أحوج إليه، وتأخير ما قد يستغني عنه "[1].

أما توجيهه لتقديم الضمير المجرور في آية الأنفال فقد بناه على تقديم ما هو أهم عند المخاطبين ، يقول : " وأما تقديم (بِهِ) في الآية الثانية، فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور ، وقد يقدم المفعول على الفاعل إذا كان اللبس واقعًا فيه ، وأريد إزالته عنه.....، فهو يبدأ بما هو أهم وعنايته ببيانه أتم ، وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول به في التقديم والتأخير وشبههما ، وفي هذا الموضع إذا لم يعرض في اللفظ من التوفقة ما يوجب إجراء الكلام على الأصل كما كان في سورة آل عمران، فإن المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنما هو الإمداد بالملائكة، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لم يجعله إلا بشرى، فوجب أن يقدم في الكلام الثاني، وهو المضمر بعد الباء في قوله تعالى : (بِهِ) على الفاعل، فقال تعالى: ((..وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم))

[1] درة التنزيل: ١/ ٣٩١.

الأنفال: ١٠"[١] وقد وافقه ابن جماعة [٢]

وقد اكتفي الكرماني والغرناطي بتوجيه التقديم في آل عمران الذي جاء على الأصل ، أما التقديم في الأنفال الذي جاء على غير الأصل فلم يتعرضا له.

فالكرماني يرى أن تقديم (قُلُوبُكُم) وتأخير (بِهِ) ازدواجًا بين المخاطبين[٣] ووافقه الأنصاري[٤]، أما الغرناطي فهو يرى أن تقديم القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ليمتاز أهلها ممن ليس لهم نصيب" [٥].

أما الاختلاف الثالث بين الآيتين فهو في تغاير فاصلتي الآيتين ففي آل عمران:(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وفي الأنفال:(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) ، وقد اكتفى الطاهر بتوجيه التأكيد في آية الأنفال فهو يرى أنه " نزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بِهاتين الصفتين: وهما العزة ، المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء، والحكمة فما يصدر من جانبه غوص الأفهام في تبين مقتضاه ، فكيف لا يهتدون إلى أن اللَّه لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين وقد فاتتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير"[٦].

لعل الذي دعا الطاهر إلى التعليل بأنه من تنزيل المخاطبين منزلة المترددين في اتصافه بهاتين الصفتين في الآية من سورة الأنفال دون الأخرى من سورة آل عمران أنها نزلت بعد غزوة بدر والعهد بها لم يطل ،

---

[١] المرجع السابق: ١/ ٣٩٢.

[٢] كشف المعاني صـ، :١٣٩ .

[٣] البرهان في توجيه متشابه القرآن : ٤٨.

[٤] فتح الرحمن:٧٢.

[٥] ملاك التأويل ١/ ٨٩.

[٦] التحرير والتنوير: ٩/ ٢٧٧.

حيث جاءت الآية عتابًا على كراهية الخروج إلى بدر فجاءت تعريضًا بما اعتراهم من الخوف من الطائفة ذات الشوكة ، فنزلوا منزلة من يشك ويتردد باتصافه بالعزة والحكمة ؛ فأكد التعبير بناء على ذلك.

وتعليل الطاهر يختلف عن التعليلات الأخرى من علماء المتشابه ، فالإسكافي اعتمد توجيهه للمتشابه على ترتيب النزول ، فآية آل عمران نزلت بعد آية الأنفال فأجرى الخبر فيها مجرى الوصف لاختصار المعنى عن البسط اعتمادًا على ما فصل في آية الأنفال ، يقول معلقًا على آية الأنفال : " القصد إعلام المخاطبين أن النصر ليس من قبل الملائكة، ولا من جهة العدد والعدة وفضل القوة، ولكنه من القادر الذي لا يغلب ولا يمنع عما يريد فعله، والحكيم الذي يضع النصر موضعه ، والآية التي في الأنفال إنما هي في قصة يوم بدر، وبين الله تعالى ذلك بلفظ جعله كالعلة لكون النصر بيده ، فكأنه قال في المعنى: النصر ليس إلا من عند الله ، لأنه العزيز الذي لا يمنع عما يريد فعله ، الحكيم الذي يضع النصر في موضعه، ففصل ذلك في خبرين على الأصل الواجب في توفية كل معنى حقه من البيان ، والآية التي في سورة آل عمران هي في قصة يوم أحد، وهي بعد يوم بدر، وكان هذا البيان قد جعل خبرًا عن النصر في اليوم الأول ، فاقتصر من ذكر مثله في اليوم الثاني على خبر واحد، يجري عليه معنى الخبر الثاني مجرى الوصف ، لاختصار المعنى عن البسط، اعتمادًا على ما فصل في الخبر الأول، فكان الاختصار بالثاني أليق، وكان الثاني له أجمل "[1]، ووافقه الكرماني ، وأبو يحيى الأنصاري [2].

أما الغرناطي فله توجيه آخر يقول : " آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة كقوله تعالى: " وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُم " [الأنفال : ٨]

---

[1] درة التنزيل: ١/ ٣٩٣-٣٩٥.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ :٤٨، وفتح الرحمن صـ : ٧٢.

ثم قال : " وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِين " [الأنفال : ٨] ثم قال : " لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ "[الأنفال : ٩] فهذه أوعاد علية لم يتقدم إفصاح بمثلها فى آية آل عمران فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته جل وتعالى على كل شيء وحكمته فى أفعاله فقال: ((إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم))، ولما لم يقع فى آية آل عمران إفصاح بما فى آية الأنفال وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد "[1].

ومما تقدم نجد أن جميع التعليلات ذات قيمة بلاغية تدل على ما في القرآن من إعجاز ، وكل منها ناظر إلى وجه صحيح يؤدي إلى اختلاف التعبير.

ومن ذلك توجيه الاختلاف بين قوله تعالى في سورة الأنعام : { قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) } وقوله تعالى في سورة الزمر :{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) }.

وواضح الاختلاف بين قوله في سورة الأنعام : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) وقوله في سورة الزمر: ((فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠))) ولم يتناول أحد من علماء المتشابه أو المفسرين سر الاختلاف في صياغة الجملتين السابقتين إلا الطاهر ، وعزاه إلى الإيجاز في إحدى الجملتين مراعاة للسياق السابق ، يقول في التعليق على الآية الأخيرة : " وقال تعالى هنا: ((مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)) ليكون التهديد بعذاب خزي في الدنيا وعذاب مقيم في الآخرة، فأما قوله في سورة الأنعام [١٣٥] :((قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ)) فلم يذكر فيها العذاب لأنها جاءت بعد تهديدهم بقوله: ((إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ))

[1] ملاك التأويل : ١/٨٨-٨٩.

[الْأَنْعَام: ١٣٤] "[1].

فهو يرى أنه لا داعي لذكر العذاب في آية الزمر ، والسر البلاغي هو مراعاة للإيجاز لتقدم ذكر التهديد بالعذاب قبل الآية مباشرة ، وهذا لم يقع في آية الأنعام ، ولذا ذكر العذاب فيها ، وهذا توجيه سديد .

ومنه آيتا سورة التوبة : {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) }

وقوله تعالى : { وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) }

الآيتان السابقتان تختلفان في أربعة مواضع ، أولها : اختلاف العاطف الذي صدرت به الآيتان ، وقد بين الطاهر سر الاختلاف بأن الآية الأولى جاءت بالفاء لأنها مفرعة عما قبلها ، وأما الآية الأخرى فليست مفرعة ، ولكن بينها وبين ما قبلها مناسبة فقط [2]

وقد بين وجه التفريع في الآية الأولى بقوله : " تفريع على مذمة حالهم في أموالهم، وأن وفرة أموالهم لا توجب لهم طمأنينة بال، بإعلام المسلمين أن ما يرون بعض هؤلاء المنافقين فيه من متاع الحياة الدنيا لا ينبغي أن يكون محل إعجاب المؤمنين، وأن يحسبوا المنافقين قد نالوا شيئًا من الحظ العاجل ببيان أن ذلك سبب في عذابهم في الدنيا "[3]،

وما ذكره الطاهر طيب ، ويراعي فيه تلاحم النظم وتناسبه في كلا الموضعين ، وهو قريب مما ذهب إليه الغرناطي إذ يقول :" لما وصف تعالى أقوال المنافقين فى كفرهم وشتى مرتكباتهم وقرر ما هم عليه فى آيات إلى قوله: ((وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا

[1] التحرير والتنوير : ٢٤/ ٢٠.

[2] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٨٦ .

[3] نفس المرجع السابق والصفحة.

يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)) [التوبة :٥٤] فلما عرف بأحوالهم قال لنبيه عليه السلام: ((فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ)) وكان الكلام فى قوم أن لو قيل: إذا عرفت أحوالهم فلا تغتر بما لديهم فتظن أن ما مكناهم فيه ومنحناهم إياه من مال وولد إحسان عجلناه لهم ((أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)) المؤمنون [٥٥-٥٦]، ((إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا)) [آل عمران : ١٧٨] فالكلام فى قوة الشرط والجزاء فكان موضع الفاء.

أما قوله فى الآية الأخرى: ((وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُم)) فمنسوق على قوله: ((وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُون وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُم)) وكل هذا نهى له ﷺ أن يفعله ، وليس كالأولى فى أن ذكر مرتكباتهم ما بنى نهيه عليه السلام عليه فيتصور فيه معنى شرط وجزاء ، فلا محل للفاء هنا ولا هو موضعها "[1].

وعند النظر في كتب المتشابه اللفظي نجد أن أقوالهم متقاربة مع ما ذهب إليه الطاهر والغرناطي ، وأنهم يتفقون في جوانب ويختلفون في أخرى .

فالإسكافي والكرماني اتفقا في أن سبب مجيء الفاء في قوله تعالى : ((فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ)) أن الفاء تتضمن معنى الجزاء ، والفعل الذي قبلها مستقبل يتضمن معنى الشرط ، وهو قوله : (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)[التوبة :٥٤] ، فكانت الفاء هاهنا أحسن موقعًا من الواو ، أما الواو فقد جاء قبلها (كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُون)[التوبة :٨٤] بلفظ الماضي وبمعناه ، والماضي لا يتضمن معنى الشرط ، ولا يقع من الميت فعل ، فكان الواو أحسن[2].

---

[1] ملاك التأويل ١/٢٣١

[2] درة التنزيل ٢/٧١٥ ، البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ:٨٨ .

والاختلاف الثاني بين الآيتين هو عطف الأولاد على الأموال بِدون إعادة حرف النفي في الآية الثانية ، وفي الآية الأولى أعيدت (لا) ، وقد راعى الطاهر في توجيهه لهذا الاختلاف السياق وما يستدعيه يقول : " ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها، فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيهًا بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه ، بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم وأولادهم معًا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين "[1] .

وهو جيد ويراعي فيه العنصر الأهم في كل سياق وما يستدعيه ، ولم يسبق إليه أحد من علماء المتشابه ، فقد دار توجيه الغرناطي حول أن الآية الأولى مقصود منها التأكيد ، والذي لم يقصد من الآية الثانية يقول ": لما قيل له عليه السلام : ((وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ)) وذكر له من قبح مرتكباتهم أشنعها أكد نهيه عليه السلام عن أن يلتفت إليهم تنزيهًا لقدره العلى عن الصغو إلى ما حاصله إملاء ولأهله فى الحقيقة استدراج وعناء ، فدخلت (لا)النافية تأكيدًا يناسب هذا القصد ، ولما لم يكن فى الآية الأخرى اشتراط وجزاء يقتضى التأكيد فلم تحل (لا) فجاء كل على ما يجب ويناسب".[2]

والاختلاف الثالث بين الآيتين بينه الطاهر بقوله: " جاء هنا قوله: ((إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ)) بإظهار أن دون لامٍ، وفي الآية السالفة ((إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)) بذكر لام التعليل وحذف (أَنْ) بعدها ، وهنالك قدرت أن بعد اللام وتقدير (أَنْ) بعد اللام كثير، ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ وهو تفنن "[3]

---

[1] التحرير والتنوير ١٠/٢٨٧.

[2] ملاك التأويل ١/ ٢٣٢ .

[3] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٨٧ .

وما ذكره الطاهر من التفنن في التعبير تعليل لا يرقى إلى مستوى التوجيه الذي ذكره الإسكافي ، إذ يراعي حال المتحدث عنه في الخبرين ، فأحدهما خبر عن قوم معرضين مع ازدياد إنعام الله عليهم ، والآخر خبر عمن انقطعت أعمالهم بالموت ، وبلغت نعمة الله عليهم غاية لا مزيد فيها ، والله يريد تعذيبهم بذلك بعد كفرهم ، يقول : " الأولى معناها : إنما يريد الله أن يزيد في نعمائهم بالأموال والأولاد ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، فمفعول الإرادة محذوف ، واللام لام الصيرورة ، والآية الأخيرة مخالفة للأولى في ذلك ؛ لأنها في الإخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا على النفاق ، فلم يضمر للإرادة مفعول ، وهو أن يزيد في نعمائهم لانقطاع الزيادة بالموت عنهم، فعديت الإرادة إلى ما آل إليه حالهم من تعذيبهم ، فصار المعنى : إنما يريد الله في حال إنعامه عليهم تعذيبهم به في الدنيا"[1].

والاختلاف الرابع بين الآيتين قوله تعالى في الآية الأولى: (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، وقوله في الآية الأخرى: (فِي الدُّنْيَا).

وللطاهر رأي طيب مختلف عن غيره من علماء المتشابه ، فهو يرى أنه جاء في الآية الأولى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وذلك لأنها ذكرت حالة أموالهم في حياتهم ، وجاء في الآية الأخرى: (فِي الدُّنْيَا) وذلك لأنها ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله: ((وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً)) [التَّوْبَة: ٨٤] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثًا [2] فحذف كلمة (الحياة) مناسب لأنه بصدد الحديث عن موتهم ومفارقتهم للحياة .

وما ذكره الطاهر أولى مما ذهب إليه الكرماني والإسكافي والغرناطي، فهم يذهبون إلى أن الدنيا صفة الحياة في الآيتين ، فأثبت الموصوف

---

[1] درة التنزيل٢/٧١٧ .

[2] التحرير والتنوير : ١٠/ ٢٨٧.

والصفة في الأولى ، وحذف الموصوف في الثانية ، اكتفاء بذكره في الأولى[1].

ومنه آيتا الإسراء قوله تعالى : {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)} .

وقوله تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) }.

بين الطاهر أن الآية الأخيرة تختلف عن الأولى في ثلاثة مواضع هي زيادة (لِلنَّاسِ) وزيادة (مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) وتقديم (لِلنَّاسِ).

وقد وجه الطاهر زيادة (لِلنَّاسِ) في الآية الأخيرة دون الأولى مراعيًا السياق يقول: " هذه الآية واردة في مقام التحدي والإعجاز ، فكان الناس مقصودين به قصدًا أصليًّا مؤمنهم وكافرهم بخلاف الآية المتقدمة فإنها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين " [2].

ففي رأيه أن الخطاب خاص بالمشركين في الآية الأولى، فلا يصلح استخدام لفظ (الناس) لأنه عام للمؤمنين والكافرين ، بخلاف الآية الأخيرة فالخطاب عام ، لأن المقام للتحدي والإعجاز ، والأقوى في الإعجاز عموم التحدي لكافة الناس .

وما ذكره الطاهر جيد ، ويرتكز على اختلاف المخاطب ، وتوجيه الآية الأولى هو ما ذهب إليه الغرناطي [3].

وما ذكره الطاهر في توجيه الآية الثانية أولى مما ذكره الغرناطي، يقول الغرناطي :" وأما الآية الثانية فقبلها: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) (الإسراء: ٨٨)، ثم قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ) (الإسراء: ٨٩)، فخض الفريقين وعين ممن ذكر الناس

---

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن ١/١٣٥، درة التنزيل٢/٧١٧ ، ملاك التأويل١/٥٩٦

[2] التحرير والتنوير١٥/ ٢٠٤.

[3] ملاك التأويل ٢/ ٣١٢.

اعتناء بهم، أعني بالجنس الإنساني، ليظهر شرفهم على الجن"[١].

وأما الكرماني فراعى أمرًا آخر يقول : " قوله : {وَلَقَد صرفنَا فِي هَذَا الْقُرْآن لِيذكرُوا} وفي آخر السورة {وَلَقَد صرفنَا للنَّاس فِي هَذَا الْقُرْآن} إنما لم يذكر في أول سبحان {للنَّاس} لتقدم ذكرهم في السورة ، وذكرهم في آخر السورة: ٨٩ إذ لم يجر ذكرهم لأن ذكر الإنس والجن جرى معًا فذكر الناس كراهة الالتباس " [٢] .

وما ذهب إليه الطاهر هو أقوى الوجوه في توجيه المتشابه .

وأما زيادة (مِنْ كُلِّ مَثَل) في الآية الأخيرة فداعيه عند الطاهر وروده في سياق التحدي ، والأقوى في الإعجاز تنوع الأغراض ، يقول : " وذكر ذلك أدخل في الإعجاز، فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزًا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرضٍ آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن مع كثرة أغراضه عجز بين من جهتين، لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض " [٣] .

وما ذكره الطاهر جدير بالقبول في توجيه الاختلاف ، ولم يلتفت علماء المتشابه لدراسة سر زيادة ((مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)) إلا ما ذكره الإسكافي من أن عدم ورود هذا القيد في الآية الأولى لإفادة العموم لكافة ضروب تصاريف الكلام التي جاءت قبل هذه الآية ، وورود هذا القيد في الآية الأخيرة لوروده بعد أمثال ضربت ، يقول: " إن الأولى جاءت بعد إخبار المتمرّدين من الكفار وعما آل إليه أمرهم من الدّمار من مبتدأ السورة، ثم عمّا أقامه من الدلائل النيِّرة ، والآيات البينة، وعما علّقه من الحساب بالأهلّة، وآية النهار

---

[١] نفس المرجع السابق والصفحة.

[٢] البرهان في توجيه متشابه القرآن ١/١٦٤.

[٣] التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٥

المبصرة، إلى ما حذّر من حال الآخرة، واشتمال الكتاب على ما قدّم من الحسنة والسيئة، وما بعد ذلك من الأوامر والنواهي، فجاء بعد ذلك كله قوله تعالى: ((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)) فأبهم القول ليحيط بأنواع تصاريف الكلام من الخبر والعبر وضرب المثل والأمر والنهي والوعظ والزجر إذ كان فيما قبله كل ذلك ، وأما الآية الثانية فإنها جاءت بعد الأولى، وبعد أمثال ضربت، نحو: ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)) " [1].

وهكذا يعطي السياق أكثر من وجه يدعو إلى اختلاف الصياغة والتعبير عن المقصود ، فالإسكافي ينظر إلى مراعاة السياق السابق وما يشتمل عليه من أنواع تصاريف الكلام ، وأما الطاهر فينظر إلى الأقوى في التحدي الذي هو الهدف من السياق.

أما تقديم (لِلنَّاسِ) فقد دارت أغلب توجيهاتهم حول العناية بما هو أهم في موضوع السياق ، فقد وجهه الطاهر بأنه الأهم في مقام التحدي يقول : " ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقًا لتحديهم والحجةِ عليهم"[2] .

وأما الإسكافي فيقول : " وقدّم الناس : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) تنبيهًا للناس، وليهتمّوا بتفهّمه، ويعنوا بتدبّره، ويقفوا عند أوامره، وينتهوا عن زواجره، فكان موضع الآية يقتضي تقديم "الناس" على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم به أتم" [3] .

وأما الغرناطي فقد ذكر مع العناية بالمقدم أكثر من وجه للتقديم ، يقول : " وقدم الناس لما يعطيه تقديم المجرور ، وأيضاً فلثقل التكرر فيما تقارب،

---

[1] درة التنزيل ٢/ ٨٥٩-٨٦٠

[2] التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٤

[3] درة التنزيل ٢/ ٨٦٠-٨٦١ .

ولو قيل : ولقد صّرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبي أكثر الناس إلا كفورًا لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا ، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل "[1].

وأما الكرماني فيقول : " وقدمه على قوله {فِي هَذَا الْقُرْآن} كما قدمه في قوله {قل لَئِن اجْتمعت الْإِنْس وَالْجِنّ على أَن يَأْتُوا بِمثل هَذَا الْقُرْآن لَا يأْتونَ بِمثلِهِ} ثم قال {وَلَقَد صرفنَا للنَّاس فِي هَذَا الْقُرْآن}"[2].

ويلاحظ على هذه التوجيهات التي بنيت على العناية والاهتمام أن أظهرها ما ذهب إليه الطاهر لأنه يربط العناية والاهتمام بالسياق ودواعيه ، وما ذكره غيره لم يبين داعي الاهتمام والعناية بالمقدم في السياق الوارد فيه الآية.

[1] ملاك التأويل ٢/ ٣١١.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ : ١٦٥.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ .

وبعد

فمن خلال دراسة موضوع (بلاغة المتشابه اللفظي عند الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير) ظهرت نتائج كثيرة من أهمها:

- **لم يوجه الطاهر بن عاشور جميع آيات المتشابه اللفظي في تفسيره ، وإنما وجه جزءًا منها.**
- **تميز الطاهر بالاستقلالية في التوجيه ، فهو لا يتابع عالمًا معينًا من علماء المتشابه أو المفسرين في توجيهاته، بل يتابع ما يراه صوابًا، وليس أدل على ذلك من وجود توجيهات له لآيات متشابهة لم أجد توجيهًا لها عند غيره، وكذلك وقوفه على توجيهات لم يقف عليها غيره .**
- **وقد تميز كذلك بدقة النظر وغزارة العلم والقدرة على تجلية الأسرار الخفية والمقاصد العلية للبلاغة القرآنية.**
- **المنهج الرشيد في تحليل النصوص وتذوقها هو منهج أسلافنا من أئمة التفسير واللغة والنقد والبلاغة ، ولذا كان من الواجب الكشف عن معالم منهجهم وتجلية أسسه وضبط قواعده ، ثم تعهده بالتنمية والتطبيق على النصوص البليغة.**
- **يعد ملاحظة السياق أكثر الأسس التي بنى عليها الطاهر توجيهاته ، يليه مراعاة المقام ، ثم مراعاة التلاؤم مع البناء التركيبي.**
- **أظهر البحث دراسة عميقة ومتأنية للطاهر عن الحرف والكلمة والجمل في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم .**

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالى.

أهم المراجع

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي – تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي– دار إحياء التراث العربي– الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي– تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني – تحقيق : أحمد عز الدين خلف الله – دار الوفاء– الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي – تحقيق : محمد علي النجار– المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة ، ١٤١٦هـ –١٩٩٦ م.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور –الدار التونسية ١٩٨٤ م.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور / عبد العظيم المطعني– الناشر: مكتبة وهبة– الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.
- الدر المصون للسمين الحلبي ، تحقيق : د/ أحمد محمد الخراط – دار القلم دمشق .
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي – دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين– الناشر: جامعة أم القرى– وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها– معهد البحوث العلمية مكة المكرمة– الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني – تحقيق: محمود محمد شاكر– الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة– الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- روح المعاني للألوسي تحقيق : علي عبد الباري عطية– دار الكتب

العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ .
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري– تحقيق : زكريا عميرات– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.
- فتح الرحمن لزكريا الأنصاري –تحقيق : محمد علي الصابوني– دار القرآن الكريم– بيروت– الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ–١٩٨٣ م.
- الكشاف للزمخشري – دار الكتاب العربي– الطبعة الثانية.
- كشف المعاني فى المتشابه من المثاني لابن جماعة – تحقيق : د/ عبد الجواد خلف– دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٠هـ –١٩٩٠ م.
- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي – تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض– دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ. ١٩٩٨ م .
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي – أ. د /محمد محمد أبوموسى– مكتبة وهبه– الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م .
- مفاتيح الغيب للرازي– دار إحياء التراث العربي– بيروت– الطبعة الثالثة– ١٤٢٠ هـ.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي – دار الكتب العلمية– بيروت.
- منهاج الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) في ضوء البناء التركيبي لصورة المعنى القرآني– سورة النحل نموذجًا– أ. د / محمود توفيق–" بحث منشور ضمن ندوة الدراسات البلاغية– الواقع والمأمول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام ١٤٣٢ هـ " .
- نظم الدرر للبقاعي– دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.